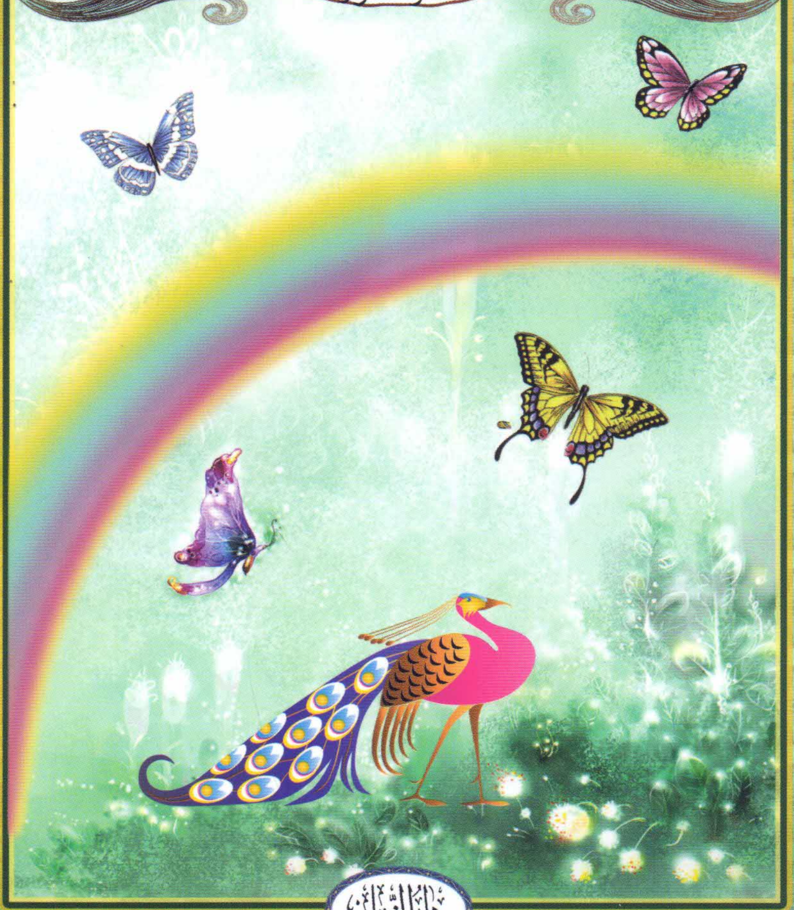
خلف ألوان الطيف

سمراء نور



دار النيل

خلف ألوان الطيف

سمراء نور

قصصٌ خياليةٌ ترمز إلى أحداثٍ واقعيّة، وتهدفُ إ
ترسيخِ المبادئ الإسلاميّة والأخلاق الرفيعة في أعما
الشباب من أجل إعدادِ جيلٍ جديدٍ يراعي الحقو
والواجبات، ويتحلّى بأكملِ الأخلاق وأجملِ الصفا
ويعود بالأمّةِ إلى مجدِها وحضارتها العريقة، حيث يس
العدلُ ويُتبادَل الإحترام وتنتشِر الفضيلة والأخلا
لأن الأُمَمَ لا تسمو وترتفعُ إلا بالأخلاق الحميدة،
تتخلّف وتذِلّ إلا بالأخلاق الذميمة.

وصدق الشاعر إذ يقول:

إنّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بقيَتْ
فإنْ هُمُ ذهبَتْ أخلاقُهُمْ ذهبُوا

SBN 978-977-618-325-4
789776 183254

دار النيل

خلف ألوان الطيف

خلف ألوان الطيف

تحرير

يوكسل جلبنار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

غلاف

نوردوغان شكماكشي

تصميم

باووز يلماز - أحمد شحاتة

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6183-25-4

رقم النشر: 1010

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج - جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 002 01000780841

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة - 2015م

خلف ألوان الطيف

تأليف

سمراء نور

ترجمة

طارق الحمد خاقان

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

خلف ألوان الطيف

كان محمـودٌ ومـرادٌ قـد اعتادا فـي نهاية كلِّ أسـبوعٍ ركوبَ الدراجـة الهوائيـة، والتوجُّهَ إلـى البراري القريبةِ مـن الحيِّ الذي يسـكنانه؛ والتنـزه والاسـتجمام وصيـد الأسـماك مـن الجدول، وكانـت مثـلُ هـذه الرحَـلات القصيـرة تعينهمـا علـى التخلُّص من عناء الأسـبوع والشـعورِ بأنهما أفضلُ حالًا، وفي تلك الأثناء يتعرَّفـان علـى مختلِـف المخلوقات فـي الطبيعة أيضًـا، وينقلانِ لعائلتيهما بين الحين والآخر كل معلومة جديدة.

وفـي صبـاحٍ ربيعـيٍّ ركبـا دراجتيهما وسـلكا الطريـق ككلِّ مـرَّةٍ دون أن يعرفـا الحـدث الغريـب الـذي ينتظرهمـا، وكانـت البراري تبدو أكثرَ اخضرارًا، والهواءُ أشـدَّ نقاءً بعد زخَّات المطر الهادئة، وتقدَّمَا في الطريق الترابيَّة وهما يستنشـقان رائحة التراب التـي وصلت إلـى أعماقهما، فكانـت بداية لا تختلـف عن بدايةٍ معتـادةٍ لنزهـةٍ عاديَّـة، ولكنهمـا تعرَّضـا لمفاجـأة عندمـا نـزلا

إلــى الجــدول؛ فقد ظهــر قوسُ ألــوان الطيف الجميــل واحتضن الطبيعةَ بألوانه السبعةِ من فوق الغابة.

ظــلَّ الصديقان ينظران بإعجابٍ إلى هذا المنظر الجميل مدَّةً من الزمن، وبعد ذلك قال مراد متحمِّسًا:

- هيَّا بنا نذهب إلى حيث يبدأ قوس ألوان الطيف.

اعترض محمودٌ قائلًا:

- هل تظنُّه قريبًا كما يُرى؟ فمهما ذهبنا لن نصلَ إليه أبدًا.

فردَّ مرادٌ قائلا:

- أعلمُ ذلك، ولكنَّ قوس ألوان الطيف هذا ليس كغيره.

وقــاد درَّاجته باتِّجاه الغابة على طول الجدول إلى حيث يبدأ قوس ألوان الطيف.

وقد أراد محمودٌ أن يقول له: "ألن نصطاد السمك؟" إلَّا أنَّ مرادًا كان قد ابتعد قبل ذلك بكثير، ولم يَعُدْ أمامه إلَّا اللحاقُ به، كان محمــودٌ يظنُّ أنَّهما كلَّما تقدَّمَا ابتعد قوس ألوان الطيف أكثر وأكثــر، ولكنَّ الأمرَ كان بخلاف ذلك؛ فقد كانا يقتربان من قوس ألوان الطيف باقترابهما من الغابة، وأخيرًا وصلا إلى حيث يبدأ.

وكان قــوس ألــوان الطيــف يظهــر أمامهما، وكانــت الألوان المصفوفة بانتظامٍ تمتدُّ لامعةً نحو السماء.

قال محمودٌ، وقد ظهرت الحيرةُ والقلقُ في نظراته:

- حقًّا إنه لا يشبه غيره مطلقًا.

أمَّا مرادٌ فقد كان في غاية السرور؛ فأخيرًا عاش حدثًا فريدًا من نوعه في مدينته الهادئة الصغيرة التي يعيش فيها منذ سنوات، وقال بإصرار:

- هيَّا لنمرَّ من خلاله.

صرخ محمودٌ من ورائه:

- قف، فنحن لا نعرف ما وراءه.

ولكنَّ مرادًا لم يسمعه، وقاد درَّاجته إلى وسط ألوان الطَّيف البرَّاقة، وما أن لامسها حتَّى اختفى عن الأنظار، ولم يكن محمودٌ يصدِّق عينيه، ولكن كان عليه الذهاب إلى أيِّ مكانٍ يذهب إليه صديقُه، فلا يجوز أن يتركَه وحيدًا، ولحق بمرادٍ محاولًا التغلُّبَ على خوفه.

كان ينتظرهما خلف قوس ألوان الطيف بلدٌ غريبٌ جدًّا، حيث وجدا أمامهما مدينةً غيرَ مألوفةٍ تُتحِف الأنظارَ بجمالها، بيوتًا أشبه بالقصور الفخمة المبنيَّة من الحجارة المزيَّنة بالنقوش، والأُصُص[1] السيراميكية المزيَّنة بالزهور تلازم الأبواب والنوافذ، والأزِقَّةُ مكسوَّةٌ بالأحجار النظيفةِ والمنظَّمة.

---

(١) الأصص: جمع أَصِيص، وهو الإناء الذي تُزرع فيه الورود والرياحين (المزهريات).

دخل محمودٌ ومراد المدينة بعد مرورهما على المزارع والحدائق الخضراء، فأخذ الناسُ ينظرون إليهما وإلى درَّاجتيهما الهوائيَّتين باستغرابٍ، وتهامسوا فيما بينهم، وعلى الرغم من ذلك استمرُّوا في أعمالهم دون أن يسألوهما من يكونان؟!

وكان هؤلاء الناس جميعُهم ذوي ثيابٍ حسنةٍ ووجوهٍ بشوشةٍ، وكان الأطفال المدلَّلون والمسرورون يلهون كيفما يشاؤون في الحدائق.

دخل الصديقان الشارع الرئيسيَّ الذي تتوزَّع الأسواق على جانبيه، وكان كلُّ شيءٍ موجودًا في السوق المكتظَّة بالناس، حيث تُعرَض فيها شتَّى أنواع السيراميك والحديد والصحون والأواني الفخَّارية والتحف الخشبية، وكان الخطَّاطون يكتبون بأجمل خطوطهم، والفنَّانون يزيِّنون كتابات الخطاطين بالتذهيب "والإيبرو"(٢)، في حين كانت الفتيات الشابَّات يشتغلن بالأعمال اليدويّة الدقيقة ويبدو على وجوههن الفرحة والسرور؛ وكان بريقُ الحُليِّ المصنوعة من الذهب والفضَّة والمجوهرات الموجودة في دكاكين الصاغة يَجذب الأنظارَ إليها، وبدا من الواضح أنَّ

(٢) الورق المزين بألوان وأشكال مزركشة تُطبع على الورق بعد وضعها ورسمها على الماء الممزوج بموادَّ طبيعيَّةٍ لزجة كالكُثَيراء. (المترجم)

كلَّ شـيءٍ مصنوعٌ بعنايةٍ ومن أجـود الموادِ، وماذا يمكن أن يُقالَ في الموادِّ الغذائية؟! فقد توفَّر في هذه السـوق أفخر أنواع الطعام والشراب التي لا توجد حتى على موائد الملوك.

وانبهـر مـرادٌ عندمـا رأى هـذا الغِنَى الـذي مـا كان ليتخيَّله من قبل، وبدأ يتلمّسُ كلَّ ما يراه بهوسٍ، ويتذوَّق كلَّ الأطعمة، كما أخذ يتذوّقُ بعضَ الفواكه واحدةً تلو الأخرى فيأكل بعضًا منها ويتركها، ويأكل قطعةً من كلِّ نوعٍ من أنواع الحلوى، ويتناول بعضًا من أنواع المثلَّجـات المختلفة، وكان يتناول جزءًا من كلِّ أنواع المعجنات والسـكاكر والشـيكولاتة، ويمـلأُ جيوبَـه بما لا يسـتطيع تناولَه، ولـم يكـن بِيَدِ محمودٍ حيلة إزاءَ ما يقوم بـه صديقه من تصرُّفاتٍ غريبة، فقد أراد منعَه من ذلك لكنّه لم يُفلح.

فـي الحقيقـة هـو أيضًـا كان يريـد أن يتذوَّق هـذه الأطعمة الفاخرة، ولكنه كان على علمٍ بأن كلَّ شيءٍ له ثمنٌ، وما كان يليق بهما إظهار النَّهم أمام أولئك الناس الطيِّبين.

وقال لمرادٍ:

ما تظنُّ أنك فاعلٌ؟ فما تفعله فظاظةٌ شـديدةٌ، فضلًا عن أنّك سـتجلب لنـا مصيبةً ما، وسـوف يعاقبونـك، وربَّما لن نسـتطيعَ العودة إلى البيت.

وما أن سمع مرادٌ كلمة «عقاب» حتَّى ترك ما بيده، وأخذ يُحدِّق بِمَنْ حوله من الناس واحدًا تلو الآخر بنظراتٍ يملأها الخوف، وحينئذٍ شعر كلاهما بأشياءَ غريبةٍ لم يشعرَا بوجودها من قبل؛ فلم يكن أيُّ أحدٍ يكترث لما يفعلانه ولا يقترب منهما، بل إنهم لم يكونوا يرون بائعًا واحدًا في هذه السوق الكبرى ولا في الدكاكين الفاخرة المزيَّنة، فبعض الناس جاؤوا للتوِّ إلى المدينة وهم يبحثون عن مكانٍ يمكثون فيه، وبعضهم منشغلٌ ومسرورٌ بتجهيز نفسه للسفر، وكانت جميع المنازل مهجورة قد فتحت أبوابها على مصرعيها، وكأنَّ المدينةَ الكبيرة خانٌ يُزار ويُغادَر، تُحطُّ فيه وتُشدُّ منه الرِّحال؛ فزال قلق مرادٍ، وازدادت شجاعته، ولكنَّه لم يَعُدْ في وضعٍ يتيح له أكلَ أيِّ شيءٍ، وأمسك بذراع محمودٍ وجذبه إلى دكَّانٍ للصاغة؛ فتأمَّل الذهبَ والمجوهراتِ مليًّا وقد فَغَرَ فاهُ وحدَّق عينيه مذهولًا وانطلق يقول متحمِّسًا:

- أمامَنا ثروةٌ تكفينا مدى العمر، هيَّا بنا إلى الداخل لنملأ جيوبَنا.

اعترضَ محمودٌ قائلًا:

- كلَّا، هذا لا يجوز.

فردَّ عليه مرادٌ قائلًا:

- ألا تـرى أنَّ هـذه السـوق لا صاحب لهـا، وأنه ليس هناك مَن يحاسِبُنا.

فقال محمودٌ:

- هذا ما يبدو في الظاهر فحسب؛ ولكن لكلِّ شيءٍ صاحبٌ، صحيحٌ أنهم لا يحاسِـبونا الآن، ولكن ما الـذي يجعلنا متأكِّدَينِ من أنهم لن يحاسِبونا فيما بعد؟

لم يكن مرادٌ مُباليًا بكلام محمودٍ فسرقَ الذهبَ والمجوهراتِ، ودخل البيوتَ وخرج منها، فأخذ كلَّ ما عثر عليه ممَّا خفَّ وزنه وغلا ثمنه، ووضعَه في سلَّةِ درَّاجته الهوائيَّة.

كان محمودٌ لا يزال يحاول منعه من ذلك، وأخيرًا نَفَذَ صبره، وصرخ متأفِّفًا:

- أنا أيضًا سـأتعرَّض لمشـكلةٍ بسببك، ألا ترى أنَّ هذا البلد علـى ما يُرام من الروعة والنظام؛ فمـن الواضح أنَّ له قائدًا دقيقًا وعادلًا، وأنا متأكِّدٌ أنَّ له موظفينَ أو عسـاكر يراقبون بسـريَّةٍ كلَّ صغيـرةٍ وكبيـرةٍ في كلِّ مكانٍ ويخبرونه بذلـك، فعلى ما يبدو أنَّه يُسمح بالتذوُّق والاستخدام، ولكن لا يُسمح بالسرقة.

وقد وقـع ما كان في حسـبان محمـودٍ، فبعد قليل أحاط بهما مجموعة من العساكر لا يُعلم من أين أتَوا، وألقَوا القبض على مرادٍ وزجُّـوا بـه في السـجن؛ فقد ثبتَ كلُّ ما قام به، فما الذي سيفعله محمـودٌ وما عسـاه أن يقوم به؟ ما كان بمقـدوره أن يترك مرادًا هنا ويعود بمفرده، لذا توسّل إلى العساكر أن يعفوا عنه، فقال أحدهم:

- إنَّ إصدار العفوِ بيد سلطاننا.

كان مـرادٌ يبكـي، فقد أدرك أنَّ محمودًا كان على حقٍّ؛ فلكلِّ شيءٍ مالك، وكان الجميع يُسألون عمَّا يقومون به.

وقال أحد الجنود:

- هذه المدينة عبارةٌ عن خانٍ جهَّزه السلطان وزيَّنه من أجل المسـافرين، فهـو يُكرمُ ضيوفَـه، ويؤمِّن لهم أعمـالًا مختلفةً، ثم يدعوهـم إلى القصر، ويأتي بهم إلى مقامه ليعطيهم أجورهم، أمَّا الذيـن يتجاوزون حدودهم فيعاقَبـون، فما من أحدٍ مطلق الحرية ها هنا.

فرجاهم مراد قائلًا:

- ألا تمنحونـا فرصـةً أُخـرى؟ فإننا سـنبذل قصارى جهدنا لتلافي خطئِنا.

فأجابه الجنديُّ:

- لا أحدَ يُمنح فرصةً ثانية.

وفي تلك الأثناء دخل عليهم أحدُ الموظفينَ وجمعَ الجنودَ، وتحدَّث إليهم، وهو ينظر إلى محمودٍ ومراد، ثمَّ خرج؛ وحينها تغيَّر سلوك الجنود، وصرَّح أحدهم:

لا أعرف كيف جئتما إلى هنا، بيدَ أنَّنا علمنا أنَّكما لستما من عالَمِنا، ولا تعرفان قوانيننا، ونظرًا لِصِغَرِ عمريكما، قرَّرنا أن نأخذ منكما الأشياء التي سرقتموها، ونطلق سراحكما، مالُ الخان يبقى في الخان، عودا من حيثُ أتيتما حالًا.

وغدا محمود ومراد في فرحةٍ لا تُوصَف، فركبا درَّاجتيهما دون أن يضيِّعا كثيرًا من الوقت، وسلكا الطريق التي جاءا منها، وكان قوس ألوان الطيف في طريقه إلى الزوال، ولن يتمكّنا من معرفة سبيل العودة إذا لم يصلا إليه في الوقت المناسب، فأدارا عجلاتِ دراجتيهما بكلِّ ما أوتيا من قوَّةٍ، وعبرا من تحت قوس ألوان الطيف إلى الضفَّة المقابلة في اللحظة الأخيرة، وحينما سقطا على العشب بمحاذاة الغابة تدحرجت الدرَّاجتانِ إلى الجدول، وكان قوس ألوان الطيف قد غاب تمامًا.

عندها تعانقا وصاحا معًا:

- لقد نجونا.

وأخذ مرادٌ يتفقَّد جيوبه وقد تذكَّر شيئًا، ثم صرخ حائرًا:

- الذهب..!

فقد اختفى الذهب الذي كان في جيوبه، فقال محمود مبتسمًا:

- لم أتعجبْ من هذا قطُّ، فهلَّا تذكَّرتَ ما قاله الجنديُّ؟ "مالُ الخانِ يَبقى في الخانِ".

فقال مرادٌ:

- لا بأسَ، لا أريد الذهاب إلى البلد الذي خلف ألوان الطيف ثانيةً، بل لن أفكِّر في ذلك، ثم أخرج درَّاجته من الجدول، وسلك الطريق الترابية.

إلَّا أنَّ محمودًا كان لا يزال واقفًا مكانه ينظر إلى البراري والغابات والمدينة التي يقطُنُها، ولمَّا سمعَ مرادًا يناديه قال له:

- ألا ترى يا مراد أنَّنا حقًّا في ذلك البلد؟!

فسأله مرادٌ حائرًا:

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟

فأجابه محمود:

- ليس ثمَّةَ فرقٌ بين ذلك البلد والعالم الذي نعيش فيه.

فعالَمنا أيضًا بمثابة دارٍ للضيوف، يعيش الناس فيها ويغادرونها ذاهبين إلى الآخرة؛ ويُحاسَبون على أعمالهم في ملكوت الله ﷻ؛ فإمّا أن يُكافَؤوا بالجنة أو يُعاقَبوا بالنار.

لقد فهم مرادَ ما قصَدَهُ صديقه، وأردف قائلًا:

- ومالُ الدنيا يبقى في الدنيا.

أمنيةُ إسراء

كانـت إسـراءُ تبـدُو حزينـةً عندمـا عـادت مـن المدرسـة إلى البيت؛ فرمت حقيبتها جانبًا دون أن تكترث لأمِّها التي فتحت لهـا الباب قائلةً: "أهلًا بكِ يـا بُنيَّتي"، ثم دخلت غرفتَها ووقفت عنـد النافذة تنظر إلى السـماء، قعدت أمُّهـا بجانبها ترمقها بعينينِ حائرتينِ وقلقتين، ثم قالت لها:

- هل أنتِ حزينةٌ اليوم؟

فأجابتها إسراء متلعثمةً:

- أجـل يا أمَّـاه، فلديَّ مشـكلةٌ تتعلَّق بالأنشـطة الاجتماعية في المدرسة.

- تعلميـنَ أنَّ المشـاركةَ تزيـدُ الفـرحَ وتقلّـل الحـزنَ؛ فهلَّا أخبرتِني بما جرى؟

- كانت لديَّ رغبة شديدة في الاشتراك في النادي الرياضي،

وعلى الرغم من إلحاحي الشديد سجَّلني المعلِّم في نادي الرسم حسب رغبتي الثانية، ولم أستطع الحصول على رغبتي الأولى.

- ولذلك أُصبتِ بالإحباط، أليسَ كذلك؟

- بلى، مع أنني كنتُ أدعو الله تعالى منذ أسبوعٍ أن أدخل النادي الرياضي؛ لأن رغبتي فيه كانت شديدة، ولكن لا أدري لماذا لم يستجبِ اللهُ تعالى دعائي.

فقالتِ الأمُّ متبسِّمةً:

- إذًا هم أيضًا قاموا بالدعاء.

لكن إسراءَ لم تكن في وضعٍ يمكِّنها من تحمُّل المِزاح، فاحتضنت الأمُّ بيديها يدَي إسراءَ، وقالت لها:

- أتذكرينَ يا إسراءُ عندما أخذْتُك إلى الطبيب حين مرضتِ بعدما أتممتِ الخامسة من عمركِ، وكانت في غرفة المعاينة خزانةٌ ذاتُ غطاءٍ زجاجيٍّ وبداخلها علبُ أدويةٍ متنوِّعةٌ؟ حينها أُعجِبتِ كثيرًا بالرسوم الملوَّنة التي كانت على إحداها؛ وأصررت على أخذها مع أنَّكِ لم تكوني تعرفين إذا كان ذلك الدواء مفيدًا لك أو غيرَ مفيد.

- وكيف لي أن أعرف ذلك يا أمِّي؟ فذلك لا يعرفه إلا الطبيب، وقد قال حينها إنَّه غيرُ مفيدٍ.

- نعـم، وكان أمـامَ الطبيـب ثلاثـةُ خيارات: إمّـا أن يعطيكِ الـدواءَ الـذي طلبتهِ إذا كان يناسـب مرضَـكِ، أو أن يعطيكِ دواءً أفضل، وإمّا ألّا يعطيكِ دواءً ما لم تكن هناك حاجةٌ إليه.

- أنـتِ محقّـةٌ يا أمّاه، ولكنّني لم أفهمْ بالضبط ما علاقةُ هذا بموضوعنا.

- صغيرتي إسـراء، إنَّ الله تعالى يسمـع دعاءنا، ويعلم ما هو أفضـلُ لنـا، فإذا كان ما نتمنّاه يحمل لنا نتائجَ جيّدةً فإنّه سـيعطينا إيّاه أو يعطينا ما هو أفضل منه؛ أمّا إذا كان ما نتمنّاه ليس خيرًا لنا وله نتائجُ سلبيّةٌ فإنّه لا يعطينا إيّاه أبدًا.

- أتعنينَ أنَّ انضمامي إلى نادي الرسم خيرٌ بالنسبة لي.

- ولِمَ لا؟ خصوصًا أنَّكِ قمتِ بما يجب عليكِ لكي تتحقّق أمنيَّتُك، ثمَّ إنَّكِ دعوتِ الله ، فلم يعد أمامكِ سوى شيءٍ واحد...

- الرضا بما قدر الله لك.

- أجل، كما فعلتُ أنا منذ سنتينِ.

- وماذا فعلتِ؟

- تعلميـنَ أنّنـا كنا سـنرحل، حيث كنَّا أنا وأبـوك نبحثُ معًا عـن بيـتٍ جديدٍ، وكنَّا قد أُعجبنا كثيرًا بأحد البيوت؛ إذ كانت فيه كلُّ المميزاتِ التي نبحثُ عنها.

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- رفـض صاحب البيت تأجيره لنا، فاضطُرِرْنا للارتحال إلى هـذا البيت، وقد حزنتُ حينها، لكنني كنتُ راضيةً بقضاء الله ﷻ، وكنتُ أقول: "لا يبدِّل السـيِّئاتِ حسـناتٍ إلَّا الله، فَلْنَرَ تقديرَ اللهِ، فكلُّ ما يقدِّره جميلٌ"، وبعد زمنٍ ليس بالقصير علمتُ أنَّ رجلًا مدمنًا للمخدِّرات سيِّئَ الأخلاق قد اشترى البيت المقابل للبيت الذي أَعجبَنا، وأنَّ الجيرانَ يتذمَّرون من ذلك.

- لحسـن الحـظِّ لم تتحقَّقْ أمنيَّتُكِ يـا أمَّاه، ثمَّ إنَّ هذا البيتَ أيضًا جميلٌ، هذا بالإضافة إلى جيراننا وأصدقائنا الصالحين.

- أجـل، غيـرَ أننـي ما كنـتُ أعلـم حينها ما سـيحلُّ بي من أمورٍ، فالله الذي يعلم الغيبَ نجَّانا من الشرور، حيثُ إنه لم يعطِنا ما أردناه بالضبط، ولكنَّه أعطانا أفضل منه.

- الآن بدأت أفهم كلَّ شيء.

- ولا تنسَـي يـا إسـراءُ أنَّ الإنسـان الذي يدعـو الله إنما هو إنسانٌ مؤمنٌ واثقٌ بالله ﷻ؛ لذا فإنَّ الدعاء نوعٌ من العبادة، والأجر الحقيقيُّ للدعاء يُمنَح في الآخرة.

نزهة ممتعة

كان يومًا جميلًا؛ حيث كانت الشمسُ ساطعةً، والطيورُ تطير مغرِّدةً من غُصنٍ إلى آخر ومن شـجرةٍ إلى أُخرى، والتربةُ تفيض حيويّةً؛ وكانت الحياة في الأزهار ولسـان حال الفراشـات يقول: "مرحبًـا بالربيــع"، وبعـد أن نظر السـيِّدُ فاتحٌ إلى مـا حوله عبْرَ النافذة سأل ابنيه عُمَرَ وأميرًا:

- مـا رأيكمـا أيُّها الطفـلانِ في نزهةٍ جميلةٍ، بـدلًا من قضاء اليوم أمام الحاسوب أو التلفاز؟

وأجاب الأَخَوانِ إجابةً واحدةً على هذا الاقتراح الجميل:

- بكلِّ سرورٍ!

وأخـذا يسـاعدان أبويهمـا اللذيـنِ قاما بتجهيز مسـتلزمات النزهـة، وخرجـوا جميعًا مسـرورين، كان عُمَرُ يَـودُّ الذهاب إلى

الغابة، أمّا أميرٌ فقد كان يريد الذهابَ إلى شاطئ البحر، وقد أنهى السيِّد فاتح نِقاشهما بأنْ قرَّر اصطحاب الجميع إلى متنزَّهٍ مُشْجِرٍ على الساحل، وبالتالي تحقَّقت أمنيَّةُ كلٍّ منهما.

صرخ أميرٌ مذعورًا عندما رأى عمرَ وهو يمدُّ المفرشَ على الطاولة:

- هذا المكان غير ملائم، انظر إلى الذباب الموجود هنا، وإلى النمل الذي يتجوَّل على الأرض.

ولكنَّ عُمَرَ تابع عمله دون أن يكترثَ بكلام أخيه قائلًا له:

- إذا وجدتَ مكانًا خاليًا من الحشرات فأخبرنا به، إن كان مثل هذا المكان موجودًا أصلًا!

فصرخ أمير قائلًا: "إذًا فلنقتلِ الحشراتِ كلَّها! الموت للحشرات"، وأمسكَ بيده عصًا وأخذ يضرب بها يمنةً ويسرةً، ولكنَّه شَعَرَ بأنَّ عصاه عَلِقَتْ بشيءٍ ما في الهواء، فإذا به يرى يد أبيه تُمسك بالعصا بإحكام، وحينها قال السيِّد فاتح:

- لا، هذا ليس من حقِّكَ؛ لأنَّ هذا المكان بيت النباتات والحشرات، فهل يجوز لك الدخول إلى بيتها وإلحاق الأذى بها؟

فتساءل أميرٌ حائرًا:

- بيتها؟!

فكرَّر السيِّد فاتحٌ كلامه ثانيةً:

- نعم، بيتها، وهي ذواتُ أرواحٍ ولها حقُّ الحياة.

اعترض أميرٌ بقوله:

- ولكنَّها تزعجنا.

فقال الأب:

- معكَ حقٌّ يا بُنيَّ ، ولكن هل تعلم أنَّ البشـر أحيانًا ينسَـونَ خالقهم وأسـباب خلقهـم، في حينِ أنَّ هذه الكائنـاتِ التي نراها غيرَ محبوبةٍ تَذْكُرُ الله تعالى دائمًا بلغتها الخاصَّة، وتقوم بواجباتها التي وكَّلها الله بها.

ثم قالت الأمُّ السيِّدة سماء وهي تحمل سلَّة النزهة:

- يـا أميـر، أتعلـمُ أنَّ نبيَّ الله موسـى ﷺ تذمَّر مـن الذباب ذات مرَّةٍ فقال: "يا ربِّ لِمَ أكثرتَ من هذه المخلوقات المزعجة إلى هذا الحدِّ؟" فكان الجواب: "أنتَ اشـتكيتَ من الذباب مرَّةً واحـدة، لكن الذبابَ كثيرًا ما يشـتكي من الإنس قائلًا: يا ربَّنا إنَّ هـؤلاء الإنـس لا يذكرونك إلَّا بألسـنتهم، وأحيانًا ينسَـون ذلك، مع أنَّك قادرٌ على خلق آلاف الكائنات التي تذكرك بقلبها مثلنا".

فارتسمت ابتسامةٌ حائرةٌ على وجه أمير، ثمَّ قال:

- ولكــن يــا أمِّي الذبــاب مخلوقاتٌ قَــذِرَةٌ جدًّا، فهي تنشــر الجراثيم حولنا.

ثــم قال عمــر الذي كان منشــغلًا بمراقبة الذبــاب الذي حطَّ على الطاولة في تلك الأثناء:

- أمِّي، أبي، انظرا ماذا تفعل هذه الذبابة؟

فراقب الجميع معًا بهدوءٍ الذبابةَ التي أشار إليها عمر حيث كانت تنظِّف يديها ووجهها ورجليها بعناية وكأنَّها تتوضَّأ.

ثمَّ التفتَ عمر إلى أميرٍ، وقال له:

- أَهذه مخلوقاتٌ قذرةٌ؟ أفلا تنظر؟ إنَّها تتنظَّف أكثر منك.

فغضب أميرٌ بســبب هذا الكلام، وبــدأت ملاحقةٌ طريفةٌ بين الأخوين حول الطاولة، انتهت في حضن الأب الذي قال:

- المِزاح القاسي ليس جيِّدًا.

ثــمَّ قعــدَ الجميع حولَ طاولةِ النزهةِ، فقالت الســيِّدة ســماء بمنتهى الجدِّية:

- أريدكما أن تفهما جيِّدًا أنَّه ما من شيءٍ خلقه الله تعالى دون فائــدة، الذباب يقوم بوظيفته من خلال أكل الفضلاتِ، والعناكب تصطاد الذبابَ، أتدريان ماذا سيحدث لولا ذلك؟

فسأل أميرٌ:

- وما الذي كان سيحدث؟

أجابتِ الأمُّ:

- لـولا ذلـك لـكان سـطح الأرض بكاملـه قد امتـلأ بطبقةٍ من الذباب ارتفاعها مترانِ في غضون سنة.

فقال أميرٌ منفعلًا، وقد تحيّر من جواب أمِّه:

- يا للهول!

وتابعتِ الأمُّ:

- وفـي كلِّ زاويةٍ من زوايا الطبيعـة نظام رائـع ما لـم يتدخَّلِ الإنسان فيه، وهذا النظام وضعه الخالق ﷻ.

تدخَّل السيِّدُ فاتـحٌ:

- مـا رأيكـم في أن نشـعل النار في الشَّـوَّايَةِ قبـل أن يصيبنا الجوع؟

قالتِ السيِّدةُ سماء:

- فكرة صائبة.

فجهَّزا الطاولةَ والمشـواةَ وشـوَيا اللحم، ثم نادَيا عمرَ وأميرًا اللذين كانا يلعبانِ بينَ الأشجار لكي يأكلا، ونظر عمر إلى الطعام، ثمَّ مدَّ يده إلى الطاولة قائلًا:

- كلُّ شيءٍ يبدو رائعًا، هيَّا لنبدأ.

فقال السيِّد فاتحٌ:

- قف، دعنا ندفعْ ثمنَ هذه النِّعم أوّلًا، ثمَّ نطق بالبسملة.

وبعد فراغهم من تناولِ الطعام نظَّفتِ السيِّدةُ سماءُ الطاولة بينما نظَّف السيِّدُ فاتحٌ الشَّوَّايَة.

أمّا عمر فقد وضع النُّفاياتِ في كيسٍ، ثم وضعه في حاويةِ القمامة، وحينها سأل أميرًا الذي كان يراقب شيئًا ما في التراب:

- ما الذي تنظرُ إليه بهذه الإمعان؟

فأجابه أميرٌ قائلًا:

- النمل، إنّه يحمل الفُتاتَ إلى قريته ومكان سكنه، وكأنّه يُنظِّف البيئة.

قال عمر:

- أجل، إنه ينظِّف ويحمي بقايا الطعام التي يأكلها من أن تُداسَ بالأقدام.

سأل أميرٌ أباه:

- أفي الطبيعة عامِلوُ نظافةٍ غير النمل؟

فأجابه أبوه:

- طبعًا، فكلُّ الحيَوانـاتِ والنباتـاتِ لها أعمال ذاتُ صلةٍ بالنظافة.

فسأل أميرٌ ثانيةً:

- وكيف يُنظَّف هذا البحر؟

فنظر السيِّدُ فاتحٌ قليلًا إلى البحر، ثم أجاب:

- الكثير من ذوات الأرواح كالأسماكِ وإسفنجِ البحرِ والمحارِ والكائناتِ الحيَّة الدقيقة تقوم بتنظيف البحر كما تُنظِّف النباتاتُ والرِّياح والغيوم الطقسَ، ولولا الكائناتُ الحيَّة التي تقوم بعمليَّةِ التنظيفِ لكان البحرُ عكِرًا ووسِخًا، ولما لمعَ سطحُهُ هكذا؛ ولما كان سطحُ الأرضِ والجوُّ صالحينِ للعيش.

قال عمر:

- هذا نظامٌ عجيبٌ ورائعٌ جدًّا يا أبتاه، فدُورُ الضيافةِ وأماكن العمل والفنادق التي تمتلئ وتفرغ بشكلٍ مستمرّ تكثرُ فيها الزوائد والنفاياتُ، ويتَّسخ كلُّ مكانٍ فيها، ولولا أنَّها تُنظَّف لما كان بالإمكان العيشُ فيها، والعالَم يمتلئ ويفرغ باستمرارٍ كدور الضيافة والفنادق، ويتمُّ التخلص من الفضلاتِ والأوساخِ مهما صغرت.

فقالت السيِّدة سماء:

- أنتَ على حقٍّ يا عمر، تصوَّر كيف يكون حال إنسانٍ امتنع عن الاغتسال وتنظيف منزله لمدَّة شهرٍ؟! إن هذا ليعني أنَّ الذات

التي ترعى دار الضيافة الكبرى التي نحيا فيها تحافظ على نظامها ونظافتها دائمًا كغرفةٍ صغيرةٍ ؛ وذلك يُظهِر عظمتَها.

قال السيّد فاتحٌ:

- عظمتَه فقط؟ بل يُظهر محبَّته لنا ورأفتَه بنا وعونَه لنا، خاصةً أنَّ مِنْ أسماء الله الحسنى ما يشيرُ إلى النظافة بمفهومها العامِّ وهو "القدُّوس".

قال عمر:

- إذًا فلولا النظامُ والنظافةُ اللذانِ سخَّرهما خالقنا، لَاشْمَأزَزْنا من العالَم الذي نُعجَب به.

فسأل أميرٌ دون أن يزيحَ ناظريه عن النمل:

- وحتّى نأخذ مكاننا من هذا النظام علينا ألَّا نلوّث العالَم، أليس كذلك؟

وافقته السيدة سماء رأيَه قائلةً:

- بلى، فينبغي للإنسان المؤمن ألَّا يلوِّث الطبيعة والماء والهواء؛ وأن يعلمَ أنَّ هذا الجَمالَ أمانة الله ﷻ.

وأكمل السيد فاتحٌ كلام زوجته:

- وأن يعرف الاستفادة من النِّعم دون أن ينسى شكر اللهِ طبعًا.

وأخيـرًا، وبعـد يـومٍ جميـلٍ عـادوا جميعًـا إلـى البيـت مـع ذكريـاتٍ سـعيدة تاركينَ وراءهـم تغاريدَ الطيـورِ وحفيفَ أوراقِ الشجرِ وصوت ارتطامِ الأمواجِ بالصخور الساحلية.

مفاجأة رائعة

كان فاروقٌ في غاية السعادة حين ركب سيَّارةَ المدرسة، فقد انتظـر الصباحَ وحلولَ وقتِ المدرسـةِ بفـارغِ الصبرِ؛ لأنَّ مدرِّسَ الثقافـة الدينيـة السـيِّدَ "حِكْمَتْ" وَعَدَهم بمفاجـأة في ذلك اليوم دون أن يعطي أيَّةَ فكرةٍ عنها.

وحين دخل الصفَّ وجد زملاءَه مثلَه في فضولٍ وحماسٍ.

وبعد قليلٍ دخل المدرِّسُ حكمت الصفَّ وفي يده صندوقٌ، فتوجهت الأنظارُ جميعُها إلى ذلك الصندوقِ متسـائلةً: "ما الذي بداخله يا تُرى؟"

وبعد أن تحدَّث السيِّدُ حكمت إلى طلَّابه بعضَ الوقتِ قال:

- لا أودُّ أن أترُكَكُـم فـي مزيـدٍ مـن الانتظار أيُّهـا الأطفال، فها هي المفاجأة التي حدَّثتكم عنها.

تنـاول الصندوق برفقٍ وفتحه ببـطءٍ، فكانت المفاجأةُ وجودَ كتابٍ أثريٍّ في صندوق يبدو أنَّه من صنـع فنّانٍ؛ فقد كانت صفحاتُه مكتوبـةً بماء الذهب والفضَّـة، وكان غلافُه مزيَّنًـا بالمجوهرات،

ولـم تكـن رؤية كتابٍ كهذا عن قـرب ممكنةً حتَّى في المتاحف، فمـا أجملَـه! ومـا أكثرَ ألوانَـه! ومـا أشـدَّ لمعانَـه! فهـو لا يُمَلُّ من النظر إليه على الرّغم من أنَّه مكتوبٌ كي يُقرأَ.

وقـد سـمح المعلِّـمُ حكمـتُ للطلَّاب بـأن يـرَوا عن قرب الكتـابَ الـذي ورثه عن جَـدِّه، وبعد أن تمَّت المشـاهدةُ الدقيقة للصفَحاتِ كلِّها، وأبدى الجميع إعجابه به قال المعلِّم:

- أريدكم أن تنقسـموا إلى مجموعاتٍ لتعرِّفوا هذا الكتابَ، وسـأقوم بمكافـأة المجموعـة التـي تُقـدِّم التعريـف الأجمـل والأصوب.

انقسـمَ الطـلَّابُ إلى مجموعتيـنِ، واجتهدوا مـدَّةً من الزمن فيما بينهم، وفي الختام قدَّم رئيسُ المجموعةِ الأولى ماجدٌ نتائج المشاهدة قائلًا:

- يا معلِّمي، هذا كتابٌ قديم يعود إلى مئات السنينَ؛ فغلافه مصنـوعٌ مـن الجلـد، ومزيَّـنٌ بالأحجـار الكريمة، وقد اسـتُخدِم فـي بعض زيناته الياقـوت والزمرُّد والزفير(٣) واللؤلـؤ؛ أمَّا أوراقه ففـي غايـة المتانة، وهو نوع قديـم من الورق المتيـن، وقد تمَّت كتابته بحبرٍ مصنوعٍ من ماء الذهب والفضَّة لا يُقدَّر بثمنٍ، وكاتبه غيرُ معروفٍ، وإذا ما فكَّرنا في قيمة مجوهراته حاليًّا...

(٣) الياقوت الأزرق، وله ألوانٌ أخرى وهو غير الياقوت الأحمر.

وبعد أن أنصت المدرِّس حكمت لذاك الكلام بصبرٍ وعناية قيَّم تلك العباراتِ بقوله:

- ما قلتُموه صحيحٌ أيُّها الأطفال، ولكن هل يصحُّ تعريف كتابٍ على أنه أشكالٌ وخطوطٌ على صفحةٍ بيضاءَ فقط؟ إن فعلتم ذلك فسيغضبُ مؤلِّفُ الكتاب ويقول: "أنتم تتَّهمونني بكتابة أشياءَ لا معنى لها"؟

فكَّر ماجدٌ قليلًا، ثمّ قال:

- أنتَ مُحقٌّ يا أستاذ؛ فلم نتمكَّن من معرفة الموضوع الذي يدور حوله الكتاب، ولذلك أظنُّ وصفَنا له ناقصًا.

ثمَّ جاء دورُ المجموعة الثانية، فعبَّر فاروقٌ ورفاقه عن أفكارهم قائلين:

- إنَّ هذا الكتابَ هو القرآن الكريم الذي يحتوي بين طيَّاته تعاليمَ الله ﷻ، وهُو معجزة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ؛ المعجزةُ التي لا تزال مستمرَّةً إلى يومنا هذا، والتي تخاطب الناس في جميع الأزمنةِ والأمكنةِ، وهُو الكتاب الذي كلما ازدادَ الناسُ علمًا سهُل فهمه أكثر، ولذلك يمكننا القول إنَّ القرآن يزداد شبابًا كلَّما ازداد الدهر هرَمًا، والمصحف الذي أريتَنا إيَّاه قد كُتبَ من قِبَلِ فنّانٍ كبيرٍ، بحبرٍ مصنوعٍ من ماء الذهب والفضَّة، وزُيِّن

غلافه بمختلف المجوهرات للتعبير عن رِفعة معاني القرآن، ولا أظنُّ أنَّ الأدواتِ التي استُخدِمتْ في كتابة هذا المصحف تُقدَّر بثمن، كما لا تُقدّر تعاليم الله الواردة فيه بثمن.

وبعد هذا الشرح البليغ، صفّقَ التلاميذُ تهنئةً لفاروقٍ ورفاقِه.

ووجَّهَ المدرِّس حكمت الشكر إلى تلاميذه، ثمَّ أخرج من حقيبته هدايا صغيرةً وزَّعها على فاروقٍ ورفاقه أوَّلًا، ثمَ على بقيَّة الطلَّاب وسألهم:

- القرآن الكريم كتابُ مَن يا أطفال؟ وتعاليمُ مَن؟

- كتاب الله، وتعاليم الله.

- من هو مبدعُ العالَم الذي نعيشُ فيه؟

- الله.

- إذا كان للقرآن تعاليمُ، أفليس للكون تعاليم؟

ساد صمتٌ قصيرٌ بين الطلاب، وما لبث أن قطع ماجدٌ هذا الصمتَ، فقال:

- وكيف ذلك يا أستاذ؟

- الكون أيضًا كتابٌ عظيمٌ يُظهِر صاحبُه ومبدعُه أنه كتابٌ مكتوبٌ ليس بالأحجار الكريمة بل بالنور والألوان والنجوم والحياة والأرواح والشفقة والحبِّ والكرمِ والفواكهِ والشجرِ

والزهـورِ والحشَـراتِ والماءِ والهواءِ، والمؤمنـون عندما يُجْرون التجـاربَ العلميَّة ينظـرون إلى الكون من هذا الجانب، ويقرؤون التعاليم التي فيه.

- وكيف نفهمُ تعاليم الموجودات يا أستاذ؟

- القـرآن والكـون كتابـانِ أحدهمـا يكمِّـل ويشـرح الآخر، ولذلـك فـإنَّ مَن يَفهـم تعاليمَ القرآن جيِّدًا، يكـون قد تعلَّم قراءة كتابِ الكونِ والتعبيرَ عنه.

- هل يمكن أن تعطينا مثالًا يا أستاذ؟

- حيـن نتخيَّـل أن الكونَ عبارةٌ عن كتـابٍ فإنَّ الدنيا صفحةٌ فيـه، والبشـر والحيَوانـاتُ والنباتـاتُ كلماتٌ في هـذه الصفحة، والأعضاءُ والأحاسيسُ والخلايا حروفُ تلك الكلمات، وفي كلِّ حرفٍ علومٌ كما في أيّ كتابٍ من الكتب، وكلُّ تلك الأشياء تدلّ على أنَّها من صنع ذاتٍ عليمةٍ بكلِّ شيءٍ وقادرةٍ على كلِّ شيءٍ.

- وهذه الذات هي الذَّات الإلهيَّة.

- نعـم، وكلُّ مـا في الكون من أشـياءَ مرتبطٌ بعضُها ببعض؛ وهـذا يثُبـتُ أنَّ الخالـقَ واحـدٌ، فالـذي خلق لنـا الرِّئةَ هو نفسُـه مَـن خَلـقَ الجـوَّ المناسـب لهـا، والـذي خلق لسـانَنا هو نفسُـه من خلق المذاقاتِ التي تلائِمُهُ.

وقال طالب آخر:

- والفيتامينات والمعادن الموجودة في المأكولات التي نأكلها تتفرَّق وتستقرُّ في الأماكن التي نحتاج إليها في أجسامنا، ونظرًا لكون هذه الذَّرَّات غيرِ عاقلةٍ فلا يمكن أن تعرفَ كلَّ شيءٍ ولا يمكن أن تتَّفق فيما بينها؛ فإنَّ من يقوم بكلِّ هذه الأعمال هو الله ﷻ، أليس كذلك يا أستاذنا؟

- بلى، أراكم تتعلَّمون قراءة كتاب الكون، ومن الآن فصاعدًا ستفسِّرون كلَّ ما تتعلَّمونه من جديد بشكلٍ صحيحٍ إن شاء الله، فعلى الأقلِّ حينما تشاهدون زهرةً لن تقولوا: "ما أجملَها!" بل ستقولون: "ما أجمل خلْقَها!"، وستذكرون مبدعها أي الله تبارك وتعالى.

- لا يكنْ عندك شكٌّ في قيامنا بذلك يا أستاذ.

- وهكذا ستصبح دروسُنا أمتعَ ممّا كانت عليه سابقًا.

- طبعًا، وكلَّما فهمتم تعاليمَ الكونِ سوفَ تغوصونَ مستمتعينَ في بحار العلومِ الجديدة.

وحين عاد فاروقٌ إلى البيت في ذلك اليوم كان في غاية السعادة، وكان يتعلَّم كلَّ يومٍ في المدرسة كثيرًا من الأشياء التي كان يجهلها من قبل.

ولكن ما تعلَّمَهُ اليوم كان ذا قيمة علميّة خاصة؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ الكونَ كتابٌ عظيمٌ كتبه الله تعالى للعقلاء؛ فكان في غاية الشَّوق إلى التعمُّق في قراءة كلِّ صفحةٍ وسطرٍ وكلمةٍ في هذا الكتاب وفهمها، والتعمُّق في معرفة الخالق العظيم من خلال تدبُّر قدرته وإبداعه في خلقه على هذه الأرض.

ماذا لو كُنتُ صغيرًا؟

في يومٍ من أيَّام الصيف الحارة الملتهبة، وبينما كان "جميلٌ" مستلقيًا على الرمل يستمع لصوت الأمواج طارت من فوقه نوارسُ مسرعةً؛ فارتعد من أصواتها التي تُشبه البكاء؛ فجلس وأخذ يُراقِبها؛ فإذا بها تطير فوق البحر دون أن تُرفرفَ بأجنحتها بعض الوقت، وما تلبثُ أن تتَّجهَ إلى البحر بسرعةٍ خاطفة فتغوصَ فيه لحظةً لتصيد الأسماكَ الصغيرةَ بمهارةٍ فائقة، كم كانت تبدو حرَّةً وسعيدةً!

وقال جميلٌ في نفسه: "يا ليتني كنتُ طائرًا أفتح جناحيَّ وأطير في السماء، فأَنتقل بين التلال وكأنَّني أمتلكُها، وأطير في الآفاق بِحرِّيَّةٍ وبغير خوف، يا ليت ذلك يتحقَّق!"

بعد ذلك لمحت عيناهُ الدّلافينَ التي تسبح في البحر متناغمةً فيما بينها، كم كان لَهْوُها جميلًا وهي تغوص في المياه الرحبة وتخرج منها! فقال جميلٌ في نفسه هذه المرَّة: "ليتني كنتُ دُلفينًا

أسبح في البحار طويلًا بغير خوفٍ، وأجمعُ أجملَ اللآلئِ، وأتنقَّل بين أروعِ أنواعِ المَرجانِ، وأشاهد النباتاتِ والأسماكَ الملوَّنة في أعماق البحار، يا ليت ذاك يتحقَّق!"

وبعد فترة رأى سرطانًا يتجوَّل في الرمال، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر مليًّا، ثمَّ مدَّ جميلٌ يده ليُمسك به، لكن السرطان وجَّه كمّاشَتَيه إليه؛ فخافَ جميلٌ وقفزَ إلى الخلف؛ وتفاجأ من شدةِ قوّةِ وحدّةِ كماشتَيه، وكأنَّ جسمَه كان مُغطًّى بدرع، وتخيَّل جميلٌ أنه يتجوَّل في الرمال بدرع كهذا، وأنه يحرِّك كمّاشتيه متجهًا نحو أصدقائه ليهرُبوا أمامه وهم يصرخون من الذُّعر، من يدري كم كان سيلهو حينها؟! وقال في نفسه: "ليتني كنتُ سرطانًا، لو أنَّ ذلك يتحقق!" وفي تلك الأثناء أمسكت يدٌ بجسم السرطان من طرفيه بإحكام، ودفعته إلى الأمام، فسار السرطانُ المسكينُ جانبًا نحو الصخور وغاب عن الأنظار، وهنا رفع جميلٌ رأسه ونظر وهُو شاردٌ، فإذا به يرى أخاه الكبير يحملُ بيده الأُخرى أدواتٍ كالدلْوِ والمجرفة، وقال له أخوه:

- هيّا بنا نبني قلعةً من الرمل.

وركض باتِّجاه الرِّمال المبتلَّة، وما أَنْ أفاق جميلٌ من شروده حتَّى بدأ يراقب أخاه، وكان قد أُعجب بهذه الفكرة؛ فشارك أخاه

في بناء قلعة جميلة، وحفرا خندقًا حولها وملآه بماء البحر، وبنيا جسرًا أمام الباب، ثمَّ رجعا إلى الوراء وشاهدا القلعة الرملية بإعجاب شديد، وتفحَّصاها ليعلما إن كان ثَمَّةَ شيء ينقصها.

وقال جميلٌ في نفسه: "ربَّما كان العيشُ في القلعة أمتعَ من بنائها، ليتني أستطيع الدخول في القلعة، يا ليتني أستطيع!"

كان الأخَوانِ سعيدَينِ إلى درجة أنَّهما لم يأبَهَا لإحضار أمِّهما بعض الشطائر وعصير الفواكه، بل لم يشعرا بالتعب والجوع أساسًا، ولكنهما أكلا وشربا جيِّدًا واستلقيا قُرب القلعة، وأغمضا أعينهما ليرتاحا، وبعد قليلٍ فتح جميلٌ عينيه، ونظر إلى القلعة فشعر بشيءٍ غريبٍ، تُرى أكانت القلعة تكبُر أم كان هو من يشعر بذلك؟ نظر حوله فرأى أخاه أيضًا يكبُر، ليس أخوه فقط الذي كان يكبر، بل والدلوُ والمجرفة والأصداف التي جمعاها من قبلُ، كلُّ شيءٍ -سوى جميل- كان يكبُر، نهض جميلٌ مندهشًا، وعبَرَ الجسر الذي يعلو خندقَ القلعة، ودخل القلعة، وصعد إلى البرج ليشاهد ما حوله بشكلٍ أفضل، فنظر إلى الساحل، فإذا كل شيءٍ على ما هو عليه بخلاف ما كان يظنُّ، فجميلٌ هو الذي كان يصغُر، بمعنى أنَّ أمنيَّته الأخيرة قد تحقَّقت، ولكنَّ هذا الوضع لم يعجبه قطُّ، فتمتم في نفسه قائلًا:

- ليتني تمنَّيتُ شيئًا غير دخول القلعة، يا ليتني تمنَّيتُ شيئًا غير ذلك.

وكان عليه الوصولُ إلى أخيه ليُسمِعه صوته، ويطلب منه المساعدة، أراد النزول من البرج، لكنه فوجئ بظهور مخلوقٍ ذو قرنينِ ودرع، تُرى ما هذا؟ إنه لا يتذكَّر أنَّهما وضعا محاربًا كهذا على البرج، هل يمكن أن يكون هذا حشَرةً تعيش في الرمال؟ تراجع فورًا، لأنَّ حياته أصبحت في خطرٍ إنْ لم يتمكَّن من دفع هذا الخطر عنه، فأخذ مصَّاصة عصير الفواكه التي استخدمها هو وأخوه كسارية للعَلَم، ووجَّهها إلى الحشرة فتراجعت وابتعدت، وكان عليه الآن الوصولُ إلى أخيه قبل أن يداهمه خطرٌ جديدٌ؛ فقفز من البرجِ إلى الجسرِ، ولكنَّ البرجَ الرمليَّ لم يتحمَّله فانهار به، وبالتالي سقطَ جميلٌ في الماء، حاول النجاة والخروج من الماء فتمسَّك بعودٍ طافٍ على الماء، ثمَّ تنفَّس الصُّعَداء، كان هذا اليومُ هو الأسوأ في حياته؛ إذ كان سيغرق في ماءٍ لا يتجاوز عمقه الشبر، وقد مارس التجديف بيديه للوصول إلى الضفَّة الأخرى من الخندق، ثم ركض إلى أخيه، وراح ينادي بأعلى صوته:

- أخي.. أخي... استيقظ يا أخي.

فقال أخوه:

- بل استيقظ أنت.

ولطمه على وجهه؛ فتدحرج جميلٌ على الرمال المبلَّلة، ثم فرك عينيه بيديه، وبعد ذلك نظر إلى نفسه ثم إلى أخيه فوجد كلَّ شيء قد عاد إلى سابق عهده، وحينئذٍ صرخ قائلًا:

- يا للروعة! عدتُ إلى ما كنتُ عليه... عدتُ إلى ما كنتُ عليه.

فقال أخوه الذي لم يجد لكلامه مغزًى:

- يبدو أنك تأثَّرت بأشعَّة الشمس، ورأيتَ كابوسًا ما، فاضطُرِرتُ لصفعك لتعود إلى رشدك.

فقصَّ جميلٌ حُلْمَه على أخيه، ثم قال له:

- ماذا لو كنَّا حقًّا صغارَ الحجم أو كنَّا مجبَرين على العيش مع كائناتٍ أكبر وأقوى منَّا بكثيرٍ؟ ستصبح حياتنا صعبةً جدًّا ومحفوفةً بالمخاطر، لن أحاول التشبُّه بشيءٍ بعد الآن، إنني أستطيع القيام بكثيرٍ من الأعمال بالاستعانة بما وهبني الله من عقلٍ وعينٍ وأُذنٍ ويدٍ ورِجلٍ.

فقال أخوه مبتسمًا:

- كان عليك أن تعلمَ أنَّ الله يخلق كلَّ شيء كما يجب أن يكون، فقد منحَ كلَّ كائنٍ جسمًا جميلًا وسهل الاستخدام بالنسبة إلى احتياجاته، وخلق الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ، وفضَّله على غيره من الكائنات، تأمَّلْ أعضاءَ جسمِكَ والتناسبَ فيما بينها وفوائدَها ترَ حكمةَ اللهِ وإبداعَه.

خوف زينب

بعد يوم جميلٍ ومتعِبٍ في المدرسة عادت زينب إلى البيت، وأسرعت إلى أمِّها التي كانت تستريح تحت شجرة الصفصاف[٤]، وبعد أن استقبلتها الأم مسرورةً قالت لها وهي تنظر إلى السماء:

- إنه يومٌ جميلٌ، أليس كذلك يا زينب؟

ثم دعتها لتنظر إلى الطيور التي تطير مغرِّدةً حول الفَسْقِيَّة[٥] الجميلة التى تتوسط الحديقة، والورود الملوَّنة المتناغمة مع العشب، والفراشاتِ الشبيهة بالورود المتطايرة، وقالت أيضًا:

- الحمد لله على أنَّنا نعيش في بلدٍ كالجنَّة.

فقالت زينبُ مرتبكةً:

- نعم، إنَّنا اليوم تدرَّبنا على التصرُّف عند حدوث الزلازل، وعلِمنا أنَّ وطنَنا الجميل واقعٌ على خطِّ زلزال.

---

(٤) الصفصاف: نوع من أشجار الزينة شديدة الجمال كثير الغصون والأوراق يتبدل لون ورقه تبعًا لجو الطبيعة وله أكثر من خمسمائة نوع.

(٥) الفسقية: هى حوض من الرخام ونحوه مستدير غالبًا وفيه ماء ونافورة.

فردَّتِ الأمُّ قائلةً:

- أجل يا صغيرتي، أعلمُ ذلك.

فسألتْها زينب حائرةً:

- إذًا فلم أنتِ هادئةٌ يا أمِّي؟ أنا خائفةٌ جدًّا، تخيَّلي أنَّنا قد نفقد كلَّ ما لدينا بل حتَّى أرواحنا.

فقالت الأمُّ:

- اجلسي بجانبي لأخبرَكِ لِمَ أنا هادئة، ولكن استمعي أوَّلًا إلى هذه القصَّة التي سأقصُّها عليك...

- يُحكى أنَّ صديقَين ركبا البحرَ في غابر الأزمان، حيث صَعِدَا سفينةً وكلٌّ منهما يحمل حقيبةً ثقيلةً على ظهره، ثمَّ وضع أحدُهما حقيبتَه على طرف أرضيّة السفينة وقعدَ عليها، وأخذ يشاهد البحر الذي كان شديد الزرقةِ، ويتأمَّل النوارس.

- أمَّا الآخر فقد كان ينظر حوله قَلِقًا دون أن يُفكِّر في وضع حِمْله على الأرض، فقال له صديقه: "ضع حقيبتك على الأرض، واسترِح"، فردَّ عليه الآخرُ: "لا، لن أتركها، فقد تَضيعُ، ثم إنِّي قويٌّ بما يكفي، وبإمكاني حملُ حقيبتي على ظهري والحفاظُ عليها"، فابتسم صديقه، وقال: "لا عليك، فإنَّ السفينةَ أقوى منكَ، وهِيَ قادرةٌ على حَملك وحملِ حقيبتك".

تحرَّكتِ السفينة، وفي أثناء سيرها متأرجحةً بين أمواج البحر بدأتْ قُوى الشابِ تنفد، وصارت الحقيبة تتثاقل عليه مع مرور الوقت، ثم شعر بالدَّوَرَان، وكاد يقع في البحر، فهرعَ إليه مَنْ حوله فأنقذوه، ومع ذلك لم يترك حقيبَتَهُ؛ فضحك عليه الذين رأَوه على هذه الحال.

ولمَّا علم قبطان السفينة بأمره توجَّه إليه، وقال له: "أفَقدتَ صوابك يا ولدي؟ لمَ لا تُنزِل حقيبتك من على ظهرك؟ هل لديكَ شكٌّ في صلابة أرضية السفينة؟" لم يجبه الشاب؛ فغضب الرُّبَّانُ، وقال: "أنت لا تثق بي أيضًا؟" فتدخَّل صديقُه في الحديث وقال: "لقد أضحكتَ الجميعَ عليك، وأغضبتَ الرُّبَّان، هيا اترك هذه الحقيبة على الأرض"، وبعد كلِّ هذا قال الشابُ: "يبدو أنَّك محقٌّ!"، ووضع حقيبته على الأرض، وقعد عليها، فقال: "آه.. لقد نجوتُ من الإرهاق، ولن أكون مثارًا للسخرية مرة ثانية".

فقالت زينب:

- أخيرًا عاد الشابُ إلى رشده، وهل كان فعلُه منطقيًا في وقتٍ كان بإمكانه أن يستمتع فيه بالرحلة؟!

قالت الأمُّ:

- معك حقٌّ، ولكنَّ قلقك أيضًا لا داعيَ له في وقت يمكنك الاستمتاع فيه بالحياة.

فسألت زينب وعيناها تبحثان عن جواب:

- وكيف ذلك؟

فردَّتِ الأمُّ على سؤال ابنتها بسؤال آخر:

- لنفترض أن الدُّنيا سفينةٌ، ونحن مسافرون فيها، فهل يمكن أن تكون سفينتنا بغير رُبَّانٍ يا زينب؟

فأجابت زينب وهِي واثقةٌ من نفسها:

- لا يا أمِّي، فصاحب سفينتنا وصاحب جميع الموجودات في الكون هو الله.

عندها قالت الأمُّ:

- ما دام لنا وليٌّ فلمَ نحمل قلقنا وخوفنا على ظهورنا دائمًا، ونُنَغِّصُ حياتنا؟

فسألت زينب يائسةً:

- وما الذي يمكننا فعله؟

أجابتها الأمُّ:

- ألا يمكنُنَا أن نَأْتَمِنَ رُبَّانَنا؟! فلا حدودَ لقوَّته ورحمته، بِيَدِهِ الأمرُ ومقاليدُ كلِّ شيء، فمن يتوكَّل عليه حق التوكل

يُحقِّق أمانيَّهُ، وينجُو من الخـوف والوقوع في المواقف التي تثير السـخرية، ويكون سـعيدًا هانئًا في الدنيا والآخرة أيضًا من خلال إيمانه بالله واتِّكاله عليه.

فقالت زينب:

- فهمـتُ يـا أمَّـاه، ولكـن ألا يجـب علينـا أن نحتـاط ممَّـا نخاف منه؟

أجابت الأمُّ:

- بالطبـع، فقد قيل: "اعقل، ثم توكل"، أي خذ بالأسـباب ثم توكل على الله.

ثم سألت زينب مجدَّدًا:

- ما معنى هذا الكلام؟

- على سـبيل المثـال، لقد تأكَّدنا أنا وأبوك مـن مقاومة بيتنا للـزلازل، واتَّخذنا بعـض التدابير في البيت، وبعـد أن قمنا بأخذ جميع الاحتياطات دعونا الله أن يحمينا، ولم يبق إلَّا شيءٌ واحدٌ.

حينها سألت زينب في فضولٍ:

- وما هو؟

فأجابت الأم:

- أن نعيـش ونُبْصِـرَ مـا فـي الحيـاة من جمـال، ونحمد الله على ما نملك.

فكَّرت زينب بعض الوقت، ثم قالت:

- شـكرًا لكِ يا أمِّي، لقد جعلتِني مطمئنَّةً، من الآنَ فصاعدًا سأعرف كيف أفكِّر إزاءَ وجودِ المصاعبِ بشكلٍ أفضل.

الفقاعة العملاقة

كان أبَـوا محمَّدٍ يعملان؛ لذا كان عليه أن يجلس وحيدًا مدة مـن الوقـت بعد عودتِهِ من المدرسـة، وكان ذلـك يصيبه بالملل، وذاتَ يومٍ قعدَ بجانب النافذةِ ينتظرُ عودة أبويه، وقال في نفســه: "في كلِّ يومٍ يتكرر الشيءُ نفسهُ".

ونظـر إلـى مـا فـي حديقـة المنـزل مـن الأشـجار والورود والعصافيرِ التي تشرب من ماء البِركة، ثم نظر إلى السماء، وتأمَّل الغيوم والشـمسَ التي تسـير إلى الغروبِ، وتمتم في نفســه قائلًا: "الدنيا أيضًا كما هي، فالشمسُ تُشرقُ وتَغربُ كلَّ يومٍ، وأنا أذهبُ إلى المدرسة وأعودُ منها كلَّ يومٍ، والزمنُ لا يمرُّ إلَّا بِبُطْءٍ".

وظلَّ مدَّةً يستمـع لتغاريدِ المرحِ التي تَعْزِفها الطيور السابحة في البِركة هربًا من حرارة الجوّ، ثم صرخ قائلًا:

وجدتُهـا.. يمكـن أن يكـونَ لـديَّ المئـاتُ بـلِ الآلافُ من الفقاعات، وحينما يرى والدايَ ما يمكنني القيام به سيُفاجآنِ، وأنا متأكِّدٌ من أنهما سيستمتعان مثلي.

كانـت مُقْلتا محمَّدٍ تلمعان، ولكنَّه ما لبثَ أن أسـرع للبحث فـي المطبـخ والحمَّـام ومِرآبِ البيـت، وأفرغ ما اسـتطاع العثورَ عليـه مـن مـوادِّ التنظيف فـي البِركـة التي فـي الحديقـة، وقلَّبَها جيِّدًا، ثم أحضر قصبةً(٦) من سـياج الحديقة وغمس أحد طرفيها فـي مـاء البِركـة، ووضـع الطـرف الآخـر في فمـه، ونفـخ بكلِّ مـا أوتيَ من قـوَّةٍ، ولكن لم تظهرْ فقاعةٌ واحدةٌ، فنفـخ ثانيةً وثالثةً ولم يتغيَّرْ شيءٌ؛ فقال في نفسه: "هذا لن يجديَ نفعًا"، ثم ركض إلـى المرآب، وأحضر مِنفاخَ عجلةِ درَّاجـةٍ هوائيَّةٍ، وأدخل طرَفه فـي البركـة، وراح يضغط الهـواء؛ فتحرَّكت مـوادُّ التنظيف، وبدأ سطح البِركة يرتفـع شيئًا فشيئًا.

فتـح محمـدٌ عينيـه جيِّـدًا وهُو مندهـش؛ لأنه سـيكون لديه فقاعـةٌ كبيـرةٌ بدلًا من آلاف الفقاعات الصغيـرة، وكبُرتِ الفقاعة تدريجيًّـا، فتراجـع محمَّدٌ إلى الـوراء لينظرَ إلى حجـم الفقاعة، ثـم تابـع النفخ وهو يقول: "اكبري أكثر.. اكبـري أكثر"، وفجأةً

(٦) قصبة: عود طويل مفرغ من وسطه مثل الخرطوم لكنه صلب.

وجد نفسه داخلَ الفقاعة؛ فصرخ قائلًا: "ما الذي يحدث؟" لكن صوتـه يرتدُّ إليه مرة أخـرى، وأراد أن يثقبَ الفقاعة ليخرجَ منها، ولكنَّـه لـم يُفلح، لم تكن هذه الفقاعةُ تُشـبه غيرها من الفقاعات قـطُّ؛ لأنه كلّما تحـرَّك كانت تتدحرج معه في الحديقة، وتسـاءل في نفسه:

- هل اسـتخدمتُ مادَّةً كيميائيةً مختلفةً وأنا أظنها مسـحوقَ غسيل؟

وبـدأ محمَّـدٌ يتدحـرج بسـرعةٍ مـع الفقاعـة وقـت هبـوب الريـاح، وبعـد أن تنقَّل بجنون في الحديقة شـعر بأنه يرتفـع نحوَ السماء، وبدتِ البيوت والسيَّارات تصغُر شيئًا فشيئًا، وما أن ابتعدَ عـن مدينتـه التي يقطنهـا متَّجهًا إلـى البراري حتَّى تبـدَّد الخوف الذي بداخله متحوِّلًا إلى حماسٍ ممتِع.

كـم يبـدو العالَمُ جميلًا من هنا! فما أروعَ الأدغالَ الخضراءَ، وحدائقَ الورودِ الملوَّنةِ، والجداولَ التي تنسابُ متعرِّجةً وهي تسقي التـرابَ، والطيورَ المرِحةَ التي ترسـم البسـمة على شـفاهِ الطبيعة! وكانت الشـمسُ قد أوشـكت على الغروب؛ فاحمرَّت الغيومُ التي فـي الأفق، وكذلك سـطح البحر القريب مـن المدينة، وكان ضوءُ الشـمس السـاطع على الفقاعة ينعكس متحوِّلًا إلى ألوان الطيف

السبعة التي كانت تزيد عالَم محمَّدٍ جمالًا.

وبعد مرور بعض الوقت هدأتِ الرياح، فبدأت الفقاعة في الهبوط.

قال محمَّدٌ في نفسه: "ماذا لو انفجرت؟ سأتحوَّل إلى أشلاءَ حتمًا"، ولم يحدث ما كان يخشاه؛ فقد هبطت الفقاعة على سطح البحر بهدوءٍ، وما أن تنفَّس الصُّعَداءَ حتَّى وجد نفسه في البحر، بل ويتَّجه إلى أعماقه، فقال في نفسه: "وكيف يحدث هذا؟".

ثم شعر بوجود الدلافين حوله، فلم يخفْ منها؛ لأنه كان يعلم أنَّ الدلافين صديقةٌ للبشر، سحبتِ الدلافينُ الفقاعة إلى أسفل وكأنَّها تُريد أن تُرِيَ محمدًا شيئًا ما، فشاهد الصخور المرجانيّة من خلال الضوء الخافت المتسلِّلِ إلى قعرِ البحرِ عند غروب الشمس؛ فظنَّ نفسَه للحظةٍ من اللحظاتِ بطلَ قصة يعيش في البحار، فثمَّةَ عالَمٌ ملوَّنٌ مختلِفٌ تمامًا، وكانت النباتات المتنوِّعة والأسماكُ المختلفةُ والمخلوقات البحريَّة كأنَّها فنَّانونَ محترِفون يعرِضون مشهدًا خلَّابًا.

استمرَّ محمّدٌ يشاهد ذلك كلَّه حتَّى خيَّم الظلام؛ فكان عليه أن يخرج من الفقاعة ومن الماء، فَهِمَتِ الدلافينُ ما يفكِّر فيه، فتركت الفقاعة التي انطلقت مسرعةً نحو سطح الماء، فصار

محمَّـدٌ يـرى السـماء، وعندئـذٍ رأى شِـهابًا، وكان محمّـدٌ يعلـم أنَّ الشّـهابَ نيـزَكٌ يتفتَّتُ حينما يدخلُ المجـالَ الجوّيَّ للأرض، وما أن رأى هذا المشـهد حتّى قال في نفسـه: "ربَّما تدخلُ مئاتُ النيـازكِ المجـالَ الجوّيَّ يوميًّـا، ولكنَّها تنفجر قبـل وصولها إلى سـطح الأرض دون أن تؤذينـا، فما أجملَ هـذا النظام! وما أروعَ خلـقَ كلِّ شـيءٍ!" انفجـرت الفقاعـة التي وصلت إلى الشـاطئ بواسطة الأمواج عند ارتطامها بصخور الساحل.

أَخَـذَ محمـدٌ نفسًـا عميقًـا، وحمِـد اللهَ تعالـى علـى نجاتـه مـن الحـوادث الأليمـة فـي هـذه الرحلـة الغريبـة التـي أمضاها داخل الفقاعة.

لم يهدأْ حماسُـه بعدُ، فقد قام واسـتلقى على سريره، وحينها خطـرتْ علـى باله فكرةٌ جديـدة، فتذكَّـر الكلام الـذي قاله أثناء انتظـاره أبويه، وأدرك خطأه؛ فهناك نظام دقيق يُسـيِّرُ الموجودات التي انتقدها دونما تفكيرٍ بقوله: "كلُّ شيءٍ يتكرَّر يوميًّا".

وفي النهاية عاهد نفسَه أن يعرف الكونَ والخالق الذي خلقه بشكلٍ أفضل.

خُبُّ المعرفة

كان يوسُفُ يعيش في قرية جميلة وصغيرة في الأناضول، وهو يحبُّ مدرسته كثيرًا، ولم يكن يترك كُتبَ دراسته حتَّى وهو يعمل في الحقل والحديقة، وكان قد وعد أخاه أحمدَ الذي يدرس في إسطنبول أن يكون متفوّقًا في دروسه، في حين وعده أحمدُ في المقابل أنْ يأخذه إلى إسطنبول في العطلة، وكان يوسُفُ ينتظرُ ذلك اليوم بشغفٍ وفضول؛ لأنه لم يخرج من قريته قطُّ.

وبعد عدَّةِ أسابيعَ نجح يوسُفُ في الامتحانات، وجاء اليوم المُنتَظَر، فجاء أحمدُ واصطحب أخاه الصغيرَ يوسُفَ، وتوجَّها معًا إلى إسطنبول، وبدا كلُّ ما رآه وسمعه يوسُفُ على طول الطريق غريبًا جدًّا له، وكأنَّه يتعرَّف إلى الحياة من جديد؛ لذا فقد شعر بالحاجة إلى سؤال أخيه عن الكثير من الأشياء ليعرفها.

وكان أوّل ما لفتَ انتباهَهُ عندما اقتربا من إسطنبول، هو طريقة بناء ضواحيها، فتلك الأماكن تشبه قريته، ولكنَّها كبيرةٌ مثل المدينة.

وقد افْتُتِحَ سوقٌ أسبوعيٌّ في هذا اليوم مما أدَّى إلى حدوث ازدحام، ولم يكن بإمكانه رؤيةُ مكانٍ أو زقاقٍ فارغ، وكان الكل مشغولًا، فمنهم من كان مُنشغلًا بالبناء، ومنهم من كان يعمل على بيع معروضاته من الأشياء، ومنهم من كان يعمل بائعًا متجوِّلًا، وكان الأطفال يتمازحون ويلعبون ويركضون، والدجاجات والهِرَرُ والكلاب والطيور تتسابق للعثور على مكان في هذه المَغْمَغَةِ، الكلُّ يبحث عما يريده؛ فهذا يريد لحمًا، وذاك يطلب عشبًا، وآخر يبحث عن خبز.

وأخيرًا بدأت المبانِي المرتفعةُ، والقصورُ الفخمةُ والبيوت البحرية والطرق الفسيحة والجسور التي تزيِّن حيَّ "الماجديةِ" تلوحُ من بعيد.

وكانت هذه الأماكن مختلفةً تمامًا عن الضواحي، ولا يُعرَف إذا كان هذا الاختلاف ناشئًا عن البعد أو عن عدم خبرة يوسُفَ الذي قال لأخيه حائرًا:

- أخـي أخـي.. انظر إنَّ تلك البيوتَ الكبيـرةَ فارغةٌ، لا أحدَ فيها.

فابتسم أحمدُ، وقال:

- لا يا أخي ، هناك من يسكنها حتمًا.

- لا، لا، إنها حقًّا فارغةٌ، انظر، فلا يُرى أيُّ أثرٍ للحياة فيها.

- إنَّ عدمَ قُدرتِنا على رؤية أحدٍ من بعيد لا يعني عدم وجود أحد فيها.

- برأيي أنه لو كان هناك كائنٌ حيٌّ لرأيناه من بعيد، فلا أعتقد أن ثَمَّةَ حياةٌ في تلك البيوت.

- يـا أخـي، أيُعقلُ أن تكـونَ هذه القصـور الفخمة والبيوت الكبيرة والساحات فارغةً، في حينِ أنَّ الحيَّ غيرَ المنظَّم والخرب الآيِلَ للسقوط مُفعمٌ بالحياة؟ لا تنسَ أنَّ عدم الرؤية لا يعني عدم الوجود.

تجـوَّل الأخَـوانِ فـي إسـطنبولَ طَـوال اليـوم، وكان هـذا التجـوال ممتلئًـا بالاكتشـافات الجديـدة بالنسـبة إلـى يوسُـفَ، وفي المســاء صَعِدَا تلَّةَ "بايزِيد"، وشـاهدا، وهما يرتشفانِ الشاي، حيَّ "الماجدية" الذي يعُجُّ بالأنوار.

قال يوسُفُ:

- حقًّا ليس ما نراه عن بعد كما نراه عن قرب يا أخي، فكلُّ مكانٍ مكتظٌّ ومفعَمٌ بالحياة.

ثم نظر مليًّا إلى النجوم التي بَرَزَت في السماء، وقال:

- ولكن ليست هنالك أيّة إشارةٍ للحياة في الفضاء الرحب الفسيح.

فردَّ عليه أحمدُ:

- كنتَ قد قلتَ كلامًا شبيهًا بهذا عندما شاهدتَ المدينة من بعيد.

- نعم.. ولكنَّ الفضاءَ خالٍ كما تَرى.

- وكيف عرفتَ ذلك؟ هلّا تذكَّرت أنَّ عدم الرؤية لا يعني عدم الوجود.

- ماذا تعني؟ هل يوجد أحدٌ في الفضاء؟

ابتسم أحمدُ وقال:

- يا عزيزي، ليس هذا ما قصدتُ.

- ماذا هناك إذًا؟

- الملائكة وبعض الموجودات الروحانية.

- وكيف ذلك؟

- هـلَّا تخيَّلـتَ مـرَّةً مـا الحيِّزُ الذي يشـغله عالَمُنا الفسـيحُ من الفضاء؟

- نقطةٌ أو أصغر من ذلك.

- فـإذا كان عالَمُنـا الصغيـرُ إلـى هـذا الحـدِّ غنيًّـا بمـا فيـه من الكائنات الحيَّة المختلفة، فينبغي أن يكون في رحاب الأجرام السـماوية الأخـرى الشـبيهة بالقصـور العظيمـة مقارنـةً بعالمنا، ما يلائمها من ضيوف؟

- بلـى.. ولكـنَّ ظروفَ الحيـاةِ في الفضاء لا تناسِـبُ عيشَ الكائنات الحيَّة.

- لا تناسـب أمثالَنـا مـن الكائنـاتِ الحيَّـة ذوات الأجسـام والاحتياجـات الماديَّـة، أمـا تلـك المخلوقـاتُ مـن الملائكـةِ والمخلوقاتِ الروحانيَّةِ النورانيَّةِ فإنَّ الفضاءَ يناسب حياتها.

- إنَّنـي أفهـم الآن، برأيـك هل هنـاك من الملائكـةِ ما يملأ الفضاء؟

- ولِمَ لا؟ فالدنيا مكتظَّة بالكائنات الحيَّة الكثيرة جدًّا، وعلى سـبيل المثال فهناك ملايين الجراثيم تعيش في جهازنا الهضمي، والعالَم ممتلئٌ بأنواعٍ شتَّى من الكائنات كالبشر والجنِّ والنباتات والحيوانـات والبكتريـا والفيروسـات، فهـل يُعقـل أن يتـرك ربُّنا

السماءَ فارغةً وهُو الذي خلق عالَمنا ممتلئًا بكلِّ هذه الكائنات الحيَّة ليمنحَ الحياةَ أهمِّيَّةً كبيرةً؟

- وهل في عالمنا ملائكةٌ أيضًا؟

- طبعًا، فهناك أنواعٌ عديدةٌ من الملائكة الموكَّلَة بمختلِف الأعمال والعبادات.

- ولكنَّ الله لا يحتاج في شؤونه إلى مساعدين.

- معكَ حقٌّ، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ويكفي ليخلُقَ شيئًا أن يقول له: "كن" فيكون، إنَّه سلطان الكائناتِ جميعًا، والسلطنة -كما تعلم- يجب أن يكون فيها خَدَمٌ يَلِيقُون بعظمتها، وهؤلاءِ الخدم موجودونَ في كلِّ مكانٍ بما في ذلك الفضاء، فقولك: "ليس في السماء ملائكةٌ وكائناتٌ روحانيَّةٌ..."

فقطع يوسف كلام أخيه قائلًا:

- نعم، نعم.. فهمتُ، لا فرقَ بين تلك المقولة ومقولةِ: "الأحياءُ الشعبيَّةُ غيرُ المنتظمة مليئة والأحياءُ الأُخرى فارغةٌ".

فيلمُ رُعبٍ

كان ياسِرٌ -الذي يعيش في بلدةٍ قريبةٍ من المدينة- وأصدقاؤه يتناقشون حول الذهاب إلى السينما، وكان الفيلم مرعبًا جدًّا حسبما ذكر أصدقاؤه الذين شاهدوا الفيلم؛ فقد شوهدت في الفيلم خيالات وعناكب صائدة للبشر وكلابٌ ذوات رؤوسٍ ثلاثة وأفاعٍ عملاقةٌ.

قرَّر ياسرٌ وأصدقاؤه مشاهدة الفيلم ليعيشوا حالةً من الحماس، فركبوا سيَّارةَ أجرةٍ متوجِّهةً إلى المدينة، وبعد مدَّة وصلوا إلى السينما، فاشتروا بطاقات الدخول، ودخلوا قاعة السينما، ثم خرجوا منها بعد ساعتين فوجدوا الليل قد حلَّ والظلامَ خيَّم، لم يتوقَّع ياسرٌ أنَّ الفيلم سيستغرق كلَّ هذا الوقت، وقد شعروا بقلقٍ شديد؛ لأنَّ الوقت قد تأخَّر، كما أنهم لم يُخبروا أهلهم عندما خرجوا من بلدتهم، واتَّخذوا طريقهم

إلــى البلــدة، وأخيــرًا وصلوا إلى ســاحة البلدة، فتوجَّـه كلٌّ منهم إلى منزله، وكان منزل ياســرٍ بعيدًا عن ســاحة البلدة، وثمَّة طريقٌ قصيرٌ يؤدي إلى منزله، لكنَّه كان كثيرَ الأشجار وموحِشًا.

نظـر ياسـرٌ إلى الطريق الغائـر في الحدائقِ الدامسـةِ الظلامِ، فتذكَّر الفيلمَ الذي شـاهده، ونتيجةَ تأثُّره بالفيلم خاف وشـعر بأنَّ جسـده يرتجف، فدخل في الطريق بخطواتٍ سـريعةٍ محاولًا ألَّا يُفكِّر في أيِّ شـيء، حتى وصل وهو يسـير في طريقه إلى جسـرٍ معلَّقٍ فوق جدول ماء، وحينها شعر بأنه فقد كلَّ شجاعته، فأمسك بحبال الجسـر جيِّدًا، وخَطَا بعض الخطوات، ولم يَدْرِ إذا ما كان الجسـر يتحـرَّك أو أصيب هـو بالدُّوَار؟! ونظر أمامـه فإذا به يرى في نهاية الجسـر عفريتينِ يحملقانِ إليـه؛ كلٌّ منهما بعين واحدة، وينتظران مجيئه.

فكَّـر في الرجوع والهرب فـورًا، فوجد العفريتين في الطرف الآخر من الجسر؛ فنظر عن يمينه فرأى مقبرةً كبيرةً للغاية، وكانت شواهدُ قبورها تتحرّك وتميل وتعتدل وتتهامس فيما بينها، فالتفت خائفًا إلى الجهة المعاكسة فرأى لمَعانَ عيونِ الحيَوانات الوحشية الكبيرة والصغيرة وهي تملأُ مُنحدَرًا سحيقًا، وكان نُباحُ الكلاب، ونعيبُ البوم يصدح من حوله.

باتَ ياسرٌ لا يقدر على التنفس، وما عاد يشعر برجليه ولا بالأرض التي يطؤُها، وسقط على الأرض وهُو يشعر بأنَّه يتدحرج في فراغٍ سحيقٍ وظلامٍ دامس.

وفي صباح اليوم التالي فتح عينيه ببطءٍ نتيجةَ البرودة التي أصابت وجهه، وسمع واحدًا يقول بصوتٍ منخفض: "بدأ يعود إلى رشده".

قفز من مكانه مذعورًا وهُو يتذكَّر المقبرةَ والحيَوانات الوحشيَّةَ والعفاريت التي ظهرت في الظلام، نظر حوله فوجد الفلَّاحين القادمين إلى البلدة للعمل في المزارع والحدائق حيث توجد شواهد القبور، وكانوا جالسين حول مائدة الإفطار يتبادلون أطراف الحديث الودِّيِّ وهم يشربون الشايَ، فنظر إلى الجهة المقابلة لمُشاهدة الحيَواناتِ ذوات العيون اللامعة، فلم يجد غير بعض البقَراتِ والخِرفانِ، ولكن أين اختفتِ العفاريت ذوات العين الوحيدة؟ لم تكن سوى جذوع العرائش التي تحمل الجسر المعلَّق، فما أشدَّ اختلافَ كلِّ شيءٍ عمَّا كان عليه في الظلام!

فكَّر ياسرٌ في قلق والديه عليه فودَّع الفلَّاحينَ الذين ساعدوه، واتَّخذ طريقه إلى البيت، فماذا عساه يقول لهما؟ وكيف سيشرح لهما ما جرى معه من أحداثٍ؟ فقد يغضبانِ وقد يضحكان

علـى الموقـف الـذي وقـع فيـه، ولكـن كان عليه قـولُ الحقيقة أيًّا كانت النتيجة، وقد ندم بسبب الفيلم الذي شاهده؛ حيث سبَّب له الخوفَ وجعل كلَّ شيءٍ بخلاف حقيقته.

وحين وصل ياسرٌ إلى البيت كانت تنتظره مفاجأة؛ فقد وجد معلِّمَـه وبعضَ أصدقائـه هناك، وكانت علامـات النُّعاس والقلق باديـةً علـى عيونهم؛ فقد بحثوا عن ياسـرٍ مـع أبويـه طَوالَ الليل، وما أن رأوه حتَّى ظهرت ابتسامات الفرح على وجوههم جميعًا، فأقبلوا عليه مسـرعين وعانقوه، وسـألوه عما حلَّ به؟ شـعر ياسرٌ فـي أثنـاء حديثـه عمَّا جـرى له باحمـرار وجهه خجـلًا، ثمَّ أخذ يعتذر كثيرًا إلى أبويه؛ لأنه تأخَّر في العودة إلى البيت وذهب إلى السينما دون إذن.

وبعد عدَّة أيَّامٍ نادى المعلِّمُ ياسرًا، وقال له:

- إنَّـك تلتـزم بالذهـاب إلـى البيت مباشـرةً بعـد الفراغ من المدرسـة، لأني أظنُّكَ تلقنتَ درسًـا ممَّا جرى لك، ولكنِّي أشعر بأنَّك لم تستطـعِ التخلُّصَ من تأثير الفيلم.

هزَّ ياسرٌ رأسه موافقًا معلِّمَه، ثم قال:

- كان الفيلـم يُصـوِّر الطبيعـة ومـا فيها من الكائنـات الحيَّة والحوادث كالأعداء يا أسـتاذ، صحيحٌ أنِّي أعلم أنَّه مجرَّد فيلم،

لكنني يا أستاذي، لا أستطيع منعَ نفسي من النظر إلى كلِّ شيءٍ بعين الريبة والخوف.

فابتسم الأستاذ وقال:

أتذكر عفاريت الجسر المعلَّق؟

فأجابه ياسرٌ:

وكيف لي أن أنسى؟ لقد رأيتُ البشرَ وشواهدَ القبور والبقَراتِ والخرفانَ والحيواناتِ الوحشيَّةَ، وحتَّى دعائم الجسر رأيتُها عفاريتَ من ذوات العين الواحدة، فالإنسانُ حين لا يرى محيطه جيِّدًا في الظلام يظنُّ أَخْيِلَتَهُ حقائقَ.

قال الأستاذ:

هنا شيءٌ مهم، فهناك أناسٌ يرَون كلَّ شيءٍ خلاف حقيقته بسبب حرمانهم من نور الإيمان، كما أخطأتَ في إدراك ما كان حولك في تلك الليلة؛ فهؤلاء البشر يظنُّونَ الحياةَ حربًا، والمخلوقاتِ الأُخرى أعداءً، وما بعدَ الموتِ فناءً، والفيلمُ الذي شاهدتَه نتيجةٌ لفكرٍ ظلاميّ كهذا، أمَّا حينما ننظر إلى الحياة نظرةً إيمانيَّةً نورانية فإنَّنا نرى بوضوح أن الكائناتِ الأُخرى صديقةٌ وخادمةٌ لنا؛ وذلك من أجل الفوز بالحياة الأبديَّة، ونرى الموتَ بدايةَ الخلود إيمانًا بوعد الله.

عندما استمعَ ياسرٌ لأستاذه أحسَّ بأنَّ عالَمه الداخليَّ قد استنار، وبأنَّ الطمأنينةَ حلَّت محلَّ خوفه وقلقه، وحين عاد إلى البيت عاهدَ نفسه بأن يغدوَ مسالمًا لما خلقه الله من حياةٍ وكائناتٍ وماضٍ ومستقبلٍ، وسيزيد من علمه في هذه المواضيع ليكون إنسانًا مؤمنًا باللهِ وباليوم الآخر.

عاقبة الإهمال

كانتِ السماءُ صافيةً، والبحرُ شديدَ الزرقةِ حين صَعِدَ كمالٌ وعائلتُه الباخرةَ التي اقتربت من المرفأ، حيث اعتادوا الابتعادَ عن المدينة والذهابَ إلى بيتهم الصغير الموجود في مزرعةٍ في الجزيرة أيَّام العُطلة، وكانت الباخرة شديدةَ الازدحامِ في ذلك اليوم، حتَّى إنَّ العثور على مكانٍ للقعود كان أمرًا مستحيلًا.

رأى كمالٌ أنَّ هذه فرصةٌ لا تُعوَّض لإجراء رحلةٍ على ظهر الباخرة، ووافقه أبواه الرأيَ، وبحثوا عن مكانٍ مناسبٍ في الخارج وقعدوا فيه، كانتِ البرودة التي تُنعش وجوههم تزداد، ورائحة البحر تملأ صدورهم كلَّما ابتعدوا عن الشاطئ، وشاهدوا أسرابَ الطيور والدلافين.

وأخيرًا ظهرت الجزيرة، وتوجَّهت الباخرة إلى المرفأ، ولكنَّها لسببٍ ما راحت تسير بمحاذاة الشاطئ فجْأةً بدلًا من الاقتراب من المرفأ؛ نظر كمالٌ في قلقٍ إلى غرفة قيادة الرُّبَّان، ولم يدر إن كان ثمَّة ارتباكٌ هناك أو هُيِّئ له ذلك، وكان المسافرون

الآخرون أيضًا قد شعروا بأمرٍ غريب؛ فأخذوا يراقبون الأجواء بعيونٍ قلقة محاولين فَهْمَ ما يجري، ودخل هؤلاءِ الناسُ الغرباءُ في نقاشٍ حادٍّ فيما بينهم.

وعندما رأى الرُّبَّان المسافرين قلقين أراد أن يهدِّئ من روعهم؛ فأعلمهم أنَّه ربما حدث تأخُّرٌ بسيطٌ، ولا داعيَ للقلق، وفي تلك الأثناء ارتَطَمَ قعرُ الباخرة بالصخور مُصدرًا ضجَّةً عالية، فهرع بعض المسافرين نحو اليمين ونحو اليسار دونما صبرٍ؛ لينزلوا من الباخرة التي أخذت تهتزُّ وكأنها تعرَّضت لعاصفة هوجاء، والأسوأ من ذلك هو أنَّ الباخرة ثُقِبَت من عدَّة أماكن؛ وأخذت تمتلئ بالمياه بسرعة، واختلطت صيحات الناس المذعورين بأدعيتهم.

ونادى الرُّبَّان فيهم أن يهدؤوا ويلبسوا سترات النجاة، وخلال عدَّة دقائقَ ارتدى الجميع سترات النجاة بمساعدة الموظَّفين، وبعد نصف ساعةٍ من الانتظار المليء بالخوف نُقِلَ المسافرون جميعُهم إلى باخرةٍ أخرى وأُنزلوا إلى الجزيرة، وحينئذٍ انحنى بعض المسافرين وقبّلوا التراب بينما حمِد كمالٌ وعائلتُه اللهَ الذي حماهم ونجَّاهم، وقعدوا مدَّةً من الوقت على الشاطئ واستراحوا مع المسافرين.

تُـرى ما سـبب الحـادث؟ لقد كان سـبب الحادث -حسـب خبـرٍ انتشـر بين المسـافرين- هـو أنَّ الموظَّـف التِقَنِـيَّ الذي في غرفة المحرِّك قد نام ولم يشـعر بالعُطل الذي تعرَّض له المحرِّك في حينه، فكانت النتيجة أنَّ المحرِّك توقَّف عن العمل؛ فخرجت الباخرة عن السـيطرة وتأخَّرت، أي أنَّ إهمالًا صغيرًا قد يتسـبَّب في ضررٍ كبيرٍ.

وبعد مـدَّةٍ وصل كمالٌ وعائلتُه إلـى المزرعة، فركض كمالٌ مسرورًا إلى حديقة الفاكهة؛ إذ كان من المُفترَض أن تكون الفاكهة قـد نضجت، وكم كان متشـوِّقًا إلى قطفهـا وأكلها طازجةً، ولكنَّ الأشـجار لم تبـدُ كما تخيَّلهـا؛ فقد كانـت الفواكهُ غيـرَ ناضجةٍ، والأوراقُ مُصفـرَّةً ذابلـة، ما الذي جـرى لمزرعتهم التي زرعوها بجهدٍ وصبرٍ دؤوبين؟ ثم نظر إلى أبويه؛ فقال أبوه:

- المفاجأة السيِّئة الثانية في هذا اليوم.

وبـدت علامات الإحباط والكـدر بداخله تظهر على وجهه، ودونَ أن يضيِّـعَ شيئًا من الوقت اتَّصل بالمزارع، وكما توقَّـع كان المزارع قد أهمل سـقي الأشـجار، وكان كلُّ ما عليه القيام به هو رفـع غطاء قناة الماء، ثم قال لابنه:

- الإهمال الصغير يجعل الجهود الكبيرة تذهب سدًى، فالهدم سهلٌ، والبناء صعبٌ.

فردَّت الأمُّ:

- ما الذي جرى للناس؟! المرء المؤمن بالله واليوم الآخر يعرف واجباته، ويكون بنّاءً مُنتِجًا لا هدَّامًا.

فكَّر كمالٌ في ذلك حينئذٍ، وقال لو أنَّ الموظَّف الفنِّيَّ قام بواجبه فربَّما لم يقع الحادثُ؛ ولو أنَّ المزارع قام بسقي الأشجار فربَّما لم تجفَّ الأشجار، وذكر أفكاره هذه لعائلته، فقال أبوه:

- إن دقَّقتَ النظر في الكون لما وجدت فيه شيئًا عبثًا يا بنيَّ، فكيف يمكن للإنسان أن يعيش عبثًا وغيرَ مسؤول؟ فأنا لو تركتُ العمل فمَنْ سيُلبِّي احتياجات البيت؟ ولو أنَّك أهملتَ دروسك فما مصير مستقبلك ومستقبل الوطن؟

وقالت الأمُّ:

- علينا ألَّا ننسى مسؤوليّاتنا تجاه الله الذي خلقنا وأحاطنا بنعمه، فالذين يُهملون أعمالهم الدنيويَّة يتعرَّضون للفقر والذلِّ، والذين يهملون واجباتهم التي فرضها الله عليهم ولا يلتزمون بأوامره ونواهيه سيُذَلُّون في الآخرة.

لقـد تعلَّم كمـالٌ جيِّدًا ماذا تعني المسـؤوليَّة بعد ما شـاهده فـي ذلـك اليوم، وحاول جاهـدًا ألَّا يُفرِّطَ في عباداتـه أثناء عمله مـع عائلته أيَّامًا وأسـابيـعَ في الحديقة، وأخيرًا اخضرَّت الحديقة مـن جديـد وأثمـرت الفواكه، وعندمـا كان كمالٌ يجمـع باكورة الفواكه(٧) مـع أبيه قال:

- أبي.. كم هو ممتـعٌ العمل بصبرٍ والحصولُ على جزائه!

وردَّ عليه أبوه:

- وهل هذا شيءٌ يُذكر؟ هلَّا فكَّرتَ في الثواب الذي سيحصل عليه في الآخرة أولئك الذين يقومون بواجباتهم تجاه الله تعالى؟

---

(٧) أوَّل ما ينضج منها.

لذة الصيام

كان أوَّلَ يومٍ من أيَّام شـهر رمضانَ المبارَكِ والجوامـعُ مزيَّنةٌ بالمحايـي[٨]، وقـد جُهّـزت خِيَـم الإفطـار في سـاحات المدينة، وكانت الأجواء الإيمانية تحيط بكلِّ مكان، والمؤمنون يتنافسـون فيما بينهم للاستفادة من تلك الأجواء قدر استطاعتهم.

كان مصطفـى ينتظـر بفـارغ الصبـر أصدقـاءه الذيـن دعاهم للإفطار بتشـجيعٍ من والديه، وجاء الأصدقاء فاستقبلهم ورحَّب بهـم، وأدخلهـم إلى الدار، ثم نقل الأطعمـة اللذيذة التي طبختها أمُّه، والأرغفةَ السـاخنة التي أحضرها والده إلى السُّفرة بمساعدة أصدقائه، وكانت الحلويّات والفواكه والمكسَّـرات جاهزةً خارج السفرة.

(٨) جمع مَحْيَا: وهي الكتابات التي تُكتَب على الحبال الواصلة بين مئذنتي جامعٍ واحد، والتي تُنار ليلًا، وهذه الكلمة غير موجودةٍ بهذا المعنى في اللغة العربية، فقد استحدثها الأتراك العثمانيون واستخدموها بهذا المعنى. (المترجم)

قعد الجميع حول السُّفرة، وتجاذبوا أطراف الحديث أثناء انتظارهم إطلاق مدفع الإفطار.

قال مصطفى:

- أليسَ غريبًا أنَّ كلَّ الأطعمة أمامنا، ومعدتنا تتضوَّر جوعًا، ونحن لا نستطيع البدء في الطعام قبل أن تنتهيَ مدَّة الصيام؟

وكان أصدقاؤه يشاركونه الإحساس نفسه:

- بلى، أمامنا أنواعٌ شتَّى من النِّعم، لكننا ننتظر أمرَ مَنْ وهبنا النِّعم لنأكل.

- كالجيشِ بالضبط، فكلُّ المؤمنين يُنفِّذون الأمر: "ابدأ" في الإفطار.

- وعند الإمساك يتركون الأكل والشرب بالأمر: "قفْ".

- إذًا فنحن لا نملكُ حتَّى أنفسَنا، وكلُّ ما نظنُّه مُلْكًا لنا إنما هو ملك لله، في الحقيقة نحن لا نستطيع فعْلَ أبسط الأشياء إلَّا بإرادة الله.

- نعم، فمثلًا أنا أُحسُّ بالعطش جدًّا، وها هو الماء أمامي، ولكنَّني لا أستطيع أن أمدَّ يدي إلى الماء لأشربَ امتثالًا لأمر الله، فقد تجاوزتُ نفسي ورغَباتي طاعةً لله وإظهارًا للعبوديةِ بين يديهِ.

- إنَّك متواضعٌ.

وبعد تَضَاحُكٍ قصيرٍ لم يتأخَّرِ الردُّ على المِزاح.

- يا عزيزي إننا نقوم بتربية النفس من خلال الصوم، وهذا ما أردتُ قولَه، فالإنسانُ يظنُّ نفسَه قويًا، ولكنَّه عندما يظل جائعًا هكذا يُدرك مدى عجزه.

- حقًّا، فقد حكى لي والدي أنَّ الله تعالى سأل النفس: "من أنا؟ ومن أنتِ؟" فأجابت النفس دون اهتمامٍ: "أنا أنا، وأنتَ أنتَ"، فلم تشأ معرفةَ الله؛ فعاقب الله النَّفسَ بطرائقَ مختلفةٍ، ومع ذلك حصل على الإجابة نفسها، وأخيرًا تركها جائعةً، وحينئذٍ لم تستطع النفسُ تحمُّلَ ذلك، وقبلتِ الحقيقة، فقالت: "أنتَ ربِّيَ الرحيم، وأنا مخلوق من مخلوقاتك الضعيفة".

- يا أصدقائي، لقد فهمتُ معنى تربية النفس، لكنني لم أعرف ما النفس، فسأله مصطفى مبتسمًا:

- إذا كنتَ لا تعرف النفس فكيف ستعرف تربيتها؟!

ثمَّ أخذ يشرح له قائلًا:

- النفس هي: الرغبات النابعة من داخلنا والمشاعر التي لا حدودَ لها كالطلب والغضب وعدم الصبر وما شابه ذلك، ومن خلال عبادة الصوم نهذِّبُ هذه المشاعر، ونسيطر عليها، ونعمل

على توجيهها نحو الحُسْن والاستقامة.

- حسنٌ، الآن وُضِعتِ النِّقاطُ على الحروف، هذا يعني أنَّ الذي يُهذِّب نفسه أثناء الصوم هو الذي لا يَمُدُّ يده إلى ما أُحِلَّ له إلَّا بإذن الله، ولا يلتفتُ أصلًا إلى الحرام ولا ينظر إليه.

وعندئذٍ سُمع صوتُ مدفع الإفطار، وبعد ذلك أُذِّن لصلاة المغرب؛ فأجابوا دعوة الله للإفطار وهم سُعَداءُ بإتمام عبادة الصيام، وأفطروا بعد ترديد دعاء الإفطار والبسملة.

- الأطعمة شهيَّةٌ.

- حتَّى الخبز لذيذٌ اليومَ.

- إنه لا يختلف عمّا نأكله في كلِّ مرَّةٍ، ولكننا ندرك قيمته عندما نكون جائعين.

- معك حقٌّ، فبسبب تأثير الجوع أُحِسُّ أنَّ قطعةَ خبزٍ وطبق حساءٍ بمثابة مأدبةٍ شهيّة، وهكذا فإن الجميعَ سواء كان غنيًا أو فقيرًا يدركُ قيمة النِّعم ولذَّتها ويتعلَّم الحمْدَ.

- كلامكَ ذكَّرني بقصَّةٍ سمِعتُها في صغري.. كان هناك شابٌّ لا يحبُّ الخبزَ، ويومًا ما أصبح عاطلًا عن العمل، لذا قرَّر الذهاب إلى المدينة الكبيرة آمِلًا العثورَ على عمل، وحين تجهَّز للسفر وضعت أمُّه بعضًا من الخبز والكيك في حقيبته، فأُعْجِبَ

الشــابُّ بالكيك، ولكنه لم يُرِدِ الخبــز، فقالت له أمُّه: "خذ الخبز أيضًــا يــا بنيَّ، فقد يأتي عليكَ يومٌ تجدُ فيــه الخبز اليابس كيكًا". فقال لها الشابُّ: "أوَكائنٌ ذلك يا أمَّاه؟" ولم يعصِ أمَّه، ووضــع الخبز في الحقيبة، وبدأ السفر، ثم وصل إلى المدينة، وبحث أيَّامًا وأسابيــعَ عن عملٍ ولكنَّه لم يجد، وكان الكيك قد انتهى، والمال قد نفِد، وأمســى الشــابُّ جائعًا، ولم يكن لديه ما يأكله غير الخبز اليابس، فبدأ - مُضطرًّا- يأكل الخبز، فشعر بلذَّة الخبز وحلاوته، وقال في نفسه: "إنَّ أمِّي محقَّةٌ، الجوع يجعل طعم الخبز اليابس كطعم الكيك".

- قصَّةٌ جميلةٌ.

- هذا أوَّل صومٍ لي في حياتي، أنا لا أستطيــع مقاومة الجوع طَــوالَ هــذه المــدَّة في الأيَّــام العاديَّة، وفي الحقيقة أني شــخصيًّا تعجبت من نفسي كيف استطعت القيام بذلك!

- إنَّنــا نصــوم لله، وهو يعيننا على ذلــك، فالجوع في الصوم لا يشبه الجوعَ في غير أوقات الصوم مُطلَقًا.

- أوافقــك الــرأي، فقد قالوا لي: "إذا صُمْتَ فإنَّك ســتتأخر في دروسك"، ولكنَّ ذلك لم يحصلْ قطُّ.

- أظــنُّ أنَّــه لولا الصيام لمــا أحسّ الأغنيــاء بحاجة الفقراء،

وإذا لم يُحسّوا بذلك لم يشعروا بالرحمة، وبالتالي سيمتنعون عن تقديم المساعدة اللازمة للفقراء.

- في الحقيقة إنَّ كلَّ فردٍ يمكنه الشعور بمن هم أفقر منه وتقديم المساعدة لهم.

- وهل سيبقى فقيرٌ في البلد إذا فعل كل غنيّ ذلك؟ ولو حصل ذلك لكانت دُنيانا جميلةً وآخرتنا أجمل.

- أتدرون يا أصدقائي أنَّ فوائد الصوم بالنسبة لصحَّتنا كثيرةٌ، ولا تُحصى؟

- ليكن ذلك، جرِّب أن تحصيَها.

وبعد ضحكات ممتعة أُتي بالحلويّات والشاي، وفي أثناء ارتشاف الشاي تحدَّثوا عن فوائد الصيام على الصحَّة متذكِّرينَ حديث النَّبيّ ﷺ: "صوموا تَصِحُّوا"، ثم شكروا أمَّ مصطفى على الأطعمة اللذيذة قائلين:

- سلِمَتْ يداكِ، كلُّ شيءٍ كان لذيذًا.

- بالهناء والشفاء، ولكنْ ألم تنسوا شيئًا ما؟

فسألوها بعد أن نظر بعضهُم إلى بعضٍ حائرين:

- ما الذي نسيناه؟

- شُكرَ صاحبِ النِّعمِ الحقيقيِّ، اللهِ.

- الحمد لله.

- أنا أعرف دعاءً أيُّها الأصدقاء.

- قله إذًا.

- يا مولانا، يا من أحاطنا بنعمه، أرِنا أصول النعم وحقائقها كما أريتنا أشباهها وظلالها، والطُف بنا وارحمنا، وأطعمنا في الآخرة ما أطعمتنا إيَّاه من لذيذ نِعمك هنا، وبارك لنا في أرزاقنا، آمين.

- أين أصول النّعم ومنابعها؟

- في الجنَّة طبعًا.

كان الوقتُ يمضي، فجهزوا المكان للصلاة، ثمَّ توضَّؤوا وصَلَّوا المغرب معًا، وبعد ذلك استمتعوا طويلًا بالحكايات والنوادر والألعاب، ولمَّا حان وقت الافتراق عاد كل منهم إلى بيته فرحينَ بما قاموا به في أوَّل يومٍ وأوَّل ليلةٍ من رمضانَ المبارك.

حق الفقير

على الرغم من مرور زمن طويل على بدء الدراسة لم يُشاهَد يونـسُ حامـلًا حقيبتَـه إلـى الصفِّ، وفـوق ذلك فهو لا يسـتمـع لدروسـه جيِّـدًا، وأحيانًـا ينام وقت الـدروس، وقـد كان مدرِّس الثقافة الدينية السيِّدُ عثمانُ يلاحظ عن كَثَبٍ أحوال تلميذه يونس، ففي نهاية أحد الدروس ذهب إليه وسأله:

- أنت هادئٌ جدًّا يا يونسُ، أتُعاني من شيء؟

طأطأ يونسُ رأسه محاولًا إخفاءَ نظراته الخائفة، وقال:

- أنا مُرهقٌ ونعسانُ فقط.

- ولمَ لا تنام و تستيقظ في الأوقات اللازمة؟

- أبـي لـم يعـد يعمـل، فأنـا مُضطـرٌّ إلـى العمـل للإنفـاق على عائلتي يا أستاذ.

- وماذا تعمل؟

- إنّني أستيقظ في الصباح الباكر لأبيعَ الكعك والفطائر، وبعد المدرسة ألمُّ وأجمع أشياءَ كالأوراق والعُلَبِ الصَفيحِ من النُفايات حتَّى وقتٍ متأخِّر.

لم يعرف المدرِّسُ عثمانُ ما الذي سيقوله ردًّا على هذا الجواب الذي ما توقَّعه قطُّ، فمن يعلم كم طفلًا يُعاني مثلما يعانيه يونسُ؟ وشعر بألم في حلقه وانقطاع في نفَسه، ولكنه استطاع أن يقول ببطءٍ:

- لا تحزن ، لن نتركك وحيدًا.

وفي الأسبوع التالي لفتَ الأستاذُ عثمانُ الأنظار في الدرس إلى وجود الكثير من العائلات الفقيرة التي تعيش في ظروفٍ صعبة، وقال:

- إنَّ في أموال الأغنياء حقًّا للفقراء حَسبمَا ورد في القرآن الكريم، وإذا لم يؤدِّ الغنيُّ هذا الحقَّ فسيختلط ماله بالحرام، أمّا حين يؤدِّيه فإنَّ مالَه يطْهُرُ من الحرام ويُبارَك فيه، وهذا ما يعرف بـ "الزكاة"، تخيَّلوا كيف يكون المجتمع الذي يؤدِّي أغنياؤه زكاتهم؟

فأجاب عمر:

- تزول فيه الفروق بين الغني والفقير.

وأيّده شريفٌ قائلًا:

- أجل، فكلّما دُعِم الفقراءُ ماليًّا حسَّنوا أوضاعهم، ومع مرور الزمن يزول الفقر من المجتمع.

ثم قالت عائشة:

- وإذا تمَّ سدُّ الاحتياجات زالت الجرائم والمشاكل التي تحدث بسبب الفقر.

وفي مقابل هذه الإجابات وجّهَ المعلِّمُ عثمانُ إلى التلاميذ سؤالًا آخر:

- إذًا فما الذي يمنع البعض من أداء الزكاة؟

فأجاب أحمد على الفور:

- السبب الأهمُّ هو الأنانيّة، فبعض الأغنياء لا يأبهون بغيرهم من البشر، ويقولون في أنفسهم: ''إنْ أنا شبعتُ فلا يهمُّني الآخرون، حتّى لو بقوا جائعينَ فتلك مشكلتهم''.

فقال الأستاذ عثمانُ:

- مثل قارون تمامًا.

وسأل صالحٌ:

- أتقصد قارونَ صاحبَ الخزائن الشهيرة؟

فأجاب المعلّمُ عثمانُ:

- نعم، إنَّ قارونَ رجلٌ ثريٌّ عاش في عصر النبيِّ موسى عليه السلام. وحَسَبَ ما ذُكر في القرآن الكريم فإنَّ مفاتيحَ خزائن قارون لا يستطيع حملها إلَّا جماعةٌ قويَّةٌ، وبدلًا من أن يستخدم قارونُ هذه الثروة الضخمة التي وهبه الله إيَّاها في الإحسان إلى الناس انطوى على نفسه، وتصرَّف بأنانيَّةٍ وامتنع عن أداء الزكاة، ولم يأبه بالنصائح التي أُسدِيت إليه في هذا الموضوع.

سأل حُسَينٌ الذي كان يستمع بدقَّةٍ لأستاذه:

- وماذا بعدُ؟

- أضاع قارونُ نفسه وثروته كلَّها، ولقد لقَّنه الله تعالى درسًا له ولأمثاله من الذين يغتَرُّونُ بأموالهم ولا يعطون الفقراء حقَّهم.

فسألت خديجةُ في فضول:

- وهل في تاريخ البشر حادثةٌ أُخرى شبيهةٌ بهذه الحادثة؟

فأجاب المعلِّمُ عثمانُ:

- من الممكن أن تُشاهَدَ مثل هذه العقوبات بين الحين والآخر، فإذا وُجد الإسراف والأنانيَّة في مكانٍ فُقدت منه الطمأنينة، وإذا وُجد التوفير والزكاة ظهر الرخاء والبركة.

فسألت مروةُ:

- وهل ثَمَّةَ أمثلةٌ أُخرى في القرآن الكريم؟

أجاب الأستاذُ عثمانُ:

- هناك العديد من هذه الأمثلة في القرآن الكريم؛ فقد ورد في سورة الكهف ذِكرُ رجلينِ أحدهما يملك جنَّتينِ[٩] غنيَّتينِ بالتمر والعنب وغيرهما من المزروعات، وكان ثمَّةَ نهرٌ يجري بينهما، فاغترَّ أحدهما بما يملك، وأخذ يتكبَّر على الآخر، ولكنَّ الآخرَ قدَّم له النُّصحَ، وذكَّره بأنَّ كلَّ شيءٍ من عند الله؛ ولذلك عليه أن يؤمنَ به ويحمَدَه، لكن المغرورَ لم يستمع للنصح.

وحينها سألت مروةُ متلهِّفةً لسماع نهاية القصَّة:

- وما الذي جرى له؟

فقال الأستاذُ عثمانُ وهُو حزين:

- لقد احترقت جميع أملاكه ذاتَ يومٍ وأصبحت هباءً منثورًا، ولمَّا أصبح وحيدًا أدرك خطأه ولكن بعد فواتِ الأوان، وقد قيل: "لا تغترَّ بالمال والمُلك، ولا تقولنَّ هل ثمَّة من هو مثلي، فقد تَهُبُّ رياحٌ معاكسةٌ لسَيرِكَ، فتجعل أموالك هباءً منثورًا".

سألت صدى:

- وهل مثلُ هذه الحوادث تكون للعِقاب دائمًا؟

فأجابها الأستاذ:

---

(٩) حديقتينِ.

- لا طبعًا، فأحيانًا يتمُّ اختبار صبر الإنسان بما يشبه ذلك، إننا نعلم أنَّ الدنيا دار امتحان، ونحن مكلَّفون بالصبر في الشِّدَّة وبالشكر في الرخاء.

قال عمر:

- وما من أحدٍ يُضْمَن غناه، فقد يغدو غنيَّ اليوم فقيرَ الغد.

وردَّ عليه الأستاذُ عثمانُ:

- إنَّما يضمن الجميعُ ذلك بالزكاة، فالزكاة نوع من أنواع التكافل الاجتماعي.

فقال أحمد:

- علينا أن نذكر الآخرة أيضًا، فقد قال أجدادنا: "سيصطحبك ما قدَّمَتْه يداك".

وأيَّده الأستاذ عثمانُ قائلًا:

- أجل يا أحمد، فعظماءُ المسلمينَ الذين يعرفون هذا لم يبخلوا حين آتَوُا الزكاة والصدقة اللتينِ تُعدَّانِ دواءً للأنانيَّة والفقر، وهكذا ترابطَ الناسُ فيما بينهم، وأشفق الأغنياءُ على الفقراءِ وأحبُّوهم بدلًا من أن يحتقروهم؛ وكذلك الفقراءُ يبادلونهم الاحترام والعمل لا الحقد والحسد.

فقالت عائشة:

- حدَّثَنـي أبـي عن أمـرٍ ذي صلةٍ بهذا الموضـوع: "حدثت أزمـةُ قمـحٍ في المدينة المنـوَّرة في خلافة أبي بكـرٍ ﷺ، ولذلك أخذ تجَّار المدينة لا يشترون ولا يبيعون إلَّا القمح، وكان عثمان بـن عفَّـانَ ﷺ قـد أحضر من الشـام حِمـلَ مائة بعيرٍ مـن القمح، وكانـت تلـك الكمِّيَّـةُ تكفي أهـل المدينة جميعَهم، فـأراد بعض التجّـار شـراء ذلك القمح، ولكنَّ عثمـانَ ﷺ رفض كلَّ ما قدَّموه من أسـعار قائلًا: "هنـاك من يعطيني المزيد"، وظـنَّ البعض أنَّه يريد احتكاره، فأنكروا عليه ذلك، وشـكوه إلى الخليفة، فأوضح عثمـانُ ﷺ الأمرَ لأبي بكرٍ ﷺ بقولـه: "إنَّ هؤلاء التجّار يدفعون سـبعة أضعـاف الثمن، أمَّـا أنا فأريد بيعه لمن يدفـع لي سـبعَمائة ضعفٍ بل سـبعةَ آلافـ ضعفـ"، وتابـع عثمانُ ﷺ كلامَه والناس حولـه ينظر بعضُهم إلى بعـضٍ بعيونٍ تملأها الحيـرةُ والفضول: "لِـمَ أبيـعُ تجارتي للتجّار مـا دام الله يعرض عليَّ تجـارةً رابحةً كهذه!" ثمَّ وزَّع القمـحَ كلَّه على أهل المدينة دون مقابل.

فقال الأستاذُ عثمانُ الذي استمـع للقصَّة بدقَّةٍ:

- إنَّ هذه القصَّةَ مثالٌ رائـعٌ لنا، فالمسلم الواعي يبتغي مرضاةَ الله فـي أعماله كلِّها، ويهبُّ لمسـاعدة الناس عنـد الحاجة، ونحن علينا تنفيذ ما يقـع على عاتقنا من أجل مساعدة الفقراء في مدينتنا.

وتناقش الطلَّابُ فيما بينهم بعد الدرس حول ما يمكنهم القيام به إزاء هذا الأمر، فطُرحت أفكارٌ متنوِّعةٌ، ولم يكن بمقدورهم الوصول إلى جميع الفقراء، لكن كان بإمكانهم على الأقلِّ مساعدة المحتاجينِ من أصدقائهم في المدرسة ومساعدة عائلاتهم، ومن أجل ذلك قرَّروا القيام بحملةٍ إغاثيَّةٍ.

وفي اليوم التالي قاموا بالعمل وحصلوا على دعمِ المعلِّمينَ والطلَّاب، وتقديرًا من أولياء أمورهم لهذه الجهود أرسلوا إلى المدرسة صناديقَ أغذيةٍ وأدواتٍ مدرسيَّةٍ، وذهب الطلَّاب إلى كلِّ محلات السلع الغذائية والمكتبات دون أن يُشغِلوا أنفسهم بعدم اهتمام الباعة بهم أحيانًا؛ لأنَّ أجر هذا العمل سيُضاعف سبعمائة ضعفٍ بل سبعة آلاف ضعفٍ في الآخرة.

وأُوصِلتِ المساعداتُ التي جُمِعت إلى العائلات الفقيرة واحدةً تلو الأخرى، وأصبحوا سعداءَ بهذا العمل؛ لذا قرَّروا تقديم المساعدات بين الحين والآخر، وقد أضحى لدى يونسَ وأمثاله من الطلاب كتبٌ ودفاترُ، وغدت وجوههم فرحة.

لا تتشبه بالنعامة

كان ياقوتٌ يعيش مـع عائلته في بلدةٍ صغيرةٍ وجميلةٍ، أهلُها يعملـون فـي صيد الأسـماك، وكان أبـوه يذهب دومًـا إلى البحر بزورقـه القديم ويصطاد السـمك؛ فالصيد مصدر رزقهم الوحيد، ولَكَـمْ تمنّى ياقوت الذهابَ مـع أبيه في كل رحلة يقوم بها، لكنَّ أباه لم يكن يصطحبه معه، وكان يخبره بأنَّ ذلك أمرٌ خطِرٌ، ويقول:

- هـذا الأمـرُ ليس سـهلًا كما يُـرى، فثمَّةَ أمطـارٌ وأعاصيرُ، ناهيك عن احتمال التعرُّض للغرق والهلاك.

وذات يومٍ قال ياقوتٌ:

- لقد كَبِرتُ، وصرتُ في سنٍّ تؤهِّلني لركوب البحر.

ابتسم الوالدُ، وقال:

- حقًّا؟ إذًا سـأُخضِعُك لاختبار حتَّى أعرف إن كنتَ مؤهَّلًا لذلك أم لا؟!

سأل ياقوتٌ متحمِّسًا:

- وما هذا الاختبار؟

فاكتفى الأب بقوله:

- ستعرف ذلك في حينه.

وأخذ يصلحُ الشِّبَاكَ، وفي صباح اليوم التالي أيقظ الأبُ ابنَه أثناء أذان الفجر حيث كانتِ الديَكةُ تصيح، وقال له:

- هيّا يا بنيَّ.. قم لنصلِّيَ الفجر معًا.

ولم يكن ياقوتٌ ينوي مغادرةَ فراشه الدافئ، وتركَ نومه المريح، وتساءل ما الذي أتى بوالده فجأةً الآن؟ وقال متعللًا:

- لا يا أبي، فأنا لا أزال صغيرًا، سوف أُصلِّي عندما أصير في عمرك.

وعند شروق الشمس استيقظ ياقوتٌ لسماعه صوت المطرقة، حيث كان أبوه يصلح السقفَ، فقد مضى وقت الإفطار، فقفز من سريره وارتدى ثيابه، وأخذ قطعةَ خبزٍ وقليلًا من الجُبن، واتَّجه إلى الحديقة؛ إذ كان مغرمًا بمشاهدة أبيه وهو يعمل بها، واستند إلى جذع شجرة اللوز ليشاهد كيف سيبدِّل أبوه الأخشاب القديمة بالجديدة، لكن أباه ناداه، وقال له:

- أحضر هذا السلَّمَ واصعد إلى أعلى لتساعدني.

لم يكن هذا ما يريد أن يفعله ياقوتٌ، لذا اعترض قائلًا:

- أليس هذا العمل خطيرًا بالنسبة لي؟ فأنا لا أزال صغيرًا.

فقال أبوه:

- حسنٌ، كما تشاء، إذًا ستدهن سياج الحديقة.

فكَّر ياقوتٌ، وظن أنَّ ذلك سيكون ممتعًا أكثر، فقال:

- حسنٌ، سأذهب لإحضار الدهان والفرشاة.

توجَّـه إلـى البيت، فخُيِّل إليه أنه يسـمـع أصـوات أصدقائه، وهُيِّـئ لـه أنهـم ينادونه للسـباحة فـي البحـر، وكأن رائحة البحر التـي يأتي بها النسـيم البحريُّ العليل هي التـي تدعوه، ولـم يكن بإمكانه مقاومة تلك الدعوة، فخرج من الحديقة عبر الباب قائلًا:

- أنا ذاهب.

فقال أبوه:

- ألن تطلي السياج...

- ولكنَّ ياقوتًا تركه، وابتعد.

وفي صباح اليوم التالي كان ياقوتٌ يدور حول أبيه مهيِّئًا نفسَه لركـوب البحـر، ومكرِّرًا قوله إنَّه كبرَ بما يكفي ليصيد الأسـماك، قعد أبوه بجوار المرفأ، وناداه، وقال له:

- من الأفضل أن تقرر... هل كبرتَ أم لا؟

نظر ياقوتٌ إلى عيني أبيه دون أن يفهم الغاية من هذا السؤال، فقال أبوه:

- إنَّك مثل النعامة التي قالوا لها: "إنَّ لك جناحينِ فطيري''، فضمَّت جناحيها، وقالت: ''أنا جملٌ''، فقالوا لها: ''إذا كنتِ جَمَلًا فاحملي الأحمال!'' ، فلم يعجبها هذا الكلام، وحينئذٍ فتحت جناحيها، وقالت: ''أنا طائر''، فتركوها وشأنَها، ثم وقعت في فخٍ وهي تتجوَّل وحيدةً دون حماية، فهل تعلم ماذا فعلَتْ وهي في تلك الحالة؟

فسأل ياقوتٌ الذي وجد الحكاية غريبةً:

- ماذا فعلَتْ؟

فأجابه والدُه:

- وضعت رأسها في التراب.

فسأله ياقوتٌ حائرًا:

- لماذا؟

- لئلَّا يراها الصيَّادُ.

أخذ ياقوتٌ يضحك، وتابع أبوه:

- صارت هدفًا سهلًا للصيّاد حيث كان رأسُها في التراب وجسمُها الضخمُ في الخارج.

حينها سأل ياقوتٌ الذي وجد الحكاية جميلةً -ولكنَّ تشبيهَ أبيه له بالنعامة لم يعجبه كثيرًا-:

- ولكن ما علاقة ذلك بي؟

- أنـتَ أيضًـا تتصـرَّف كمـا يحلو لـك؛ فحيـن يُطْلَب منك تنفيـذ واجباتـك تجاه الله وتجـاه عائلتك تصبح صغيـرًا، وعندما تهـمُّ بالتنـزُّه واللهو تصبح كبيرًا، وأنت في هـذه الحالة لا تخدع إلَّا نفسَك.

سـرح ياقـوتٌ في الأفق شـاردًا مـع أفـكاره العميقة، وأدرك أنَّ أبـاه على حقٍّ؛ لقـد كان ياقوتٌ دائمًا يبحث عن حُجَّةٍ تريحه، ولكنْ إلى متى؟ فقال في نفسه:

- لا يمكـن الهروب مـن الحقائق والمسـؤوليَّات، فأنا بهذا الهرب أخدع نفسي فقط، كما تفعل النعامة تمامًا.

الرحلات الثلاث العجيبة

كان برهـانُ متحمِّسًـا لمشـاهدتِهِ الفيلـم الذي انتظـره بفارغ الصبـر منـذ وقـتٍ طويل، فقـد كانت الصـور المتحرِّكـة المؤثِّرة تعـرِض الحـربَ بيـن قُـوى الخير والشـر فـي الفيلـم، وكان كلُّ ما في الكون يُصوَّر على أنه قد وُجِد نتيجةَ مصادفةٍ أو بتدخُّلٍ من مجموعـةِ مخلوقـاتٍ ذاتِ قُوًى خارقـةٍ، وكانت كلُّ الموجودات في الفيلم غريبةً يعادي بعضُها بعضًا.

تسـاءل برهان هل كان الكون فوضَويًّـا إلى هذا الحدِّ؟ وقال في نفسه: "أيُعقل أن يكون كلُّ شيءٍ قد وُجد مصادفةً؟ هل ينتصر القويُّ دائمًا؟ يا له من أمرٍ غريب".

تشـتتت أفكار برهانَ، وشـعر بأنه لن يرتاح حتَّى يجد أجوبةً لأسـئلته، وتمتم قائلًا: "ليتني أعرف الطريق المؤدِّيةَ إلى المعرفة الصحيحة لأتعلَّم حقائق الكون!"، وتابـع مشاهدة الفيلم.

بـدأ العـرض بعـد أن حـلّ الظـلام بالغرفـة، ثم أنـارت باقةٌ مـن الأشـعَّة الغرفة، وظهر شـابٌّ غريـبٌ مدَّ يده إلـى برهان بعد

أن رَمَقَهُ بعينينِ مبتسمتينِ، وقال له: "تعالَ معي، وسوف تجد ما تبحث عنه بعد ثلاث رحلات"، ارتعد برهان، واقترب من الغريب وهو في ذهول، وأمسك بيده، وأغمض عينيه وسار معه، ولمَّا فتح عينيه وجد نفسه وحيدًا في عالَمٍ آخرَ، حيث كانت كثبان الرمل تحيط به على مدِّ البصر من الجهات الأربع، وكانت السماءُ مغطَّاةً بسحبٍ شديدة الظلام، وانعدم ضياء النهار، وتوقفت نسائم الريح، وتعطلت عوامل الحياة الأخرى، ولم يكن يَسمع سِوى أصواتٍ غريبة، وكان يرى أخيلة متحرِّكة، فهل ثمَّةَ مخلوقاتٌ غريبةٌ أو وحوشٌ تتجوَّل في الكثبان الرمليَّة؟ وسأل نفسه: "أينَ أنا؟ هل أنا في الصحراء أم في مكانٍ آخرَ؟"

لعلِّي أجد طريقًا للنجاة من هنا، فربَّما توجد أماكنُ مشمسةٌ وجميلةٌ وراءَ الصحراء، وتقدَّم على أمل الخلاص بأسرع وقتٍ ممكن من هذه الصحراء الحارَّة المملَّة، ورأى بعضَ آثار الأقدام غير الواضحة كانت تتَّجه إلى مغارةٍ في باطن الأرض، قد تكون هذه المغارة منفذًا للخروج؛ فمن الواضح أنَّ بعض الناس قد سلكوا هذه الطريق من قبلُ، وهُيِّئ له أنَّه يسمع أصواتهم بين الحين والآخر، لكن الأصوات كانت ضعيفةً جدًّا، وبعد مدَّةٍ لم يعد يسمع منها شيئًا، فبدأ برهانُ يشكُّ في وصوله

إلى المخرج، وحينها قال في نفسه وهُو قلِقٌ: "أنا أيضًا سأختفي فـي هـذه المغارة وأذهب مثـل من جاؤوا قبلي!" التقى بالشـابِ الغريب، وكان في إحدى يديه مصباحٌ وفي الأخرى سـيفٌ لامع حادٌّ، فقال له: "إذا استخدمتَ هذين فستتمكّن من قطـع الطريق"، ثـم اختفى، فأخـذ برهانُ المصباحَ والسـيف، واطمـأنَّ لأنه هُيِّئ له أنَّ الشـابَّ الغريبَ يراقبه، استخدم السيفَ في ضوء المصباح، فكان السـيفُ يقطـع الصخور ناثرًا حوله الشَّرر، ولم يمضِ وقتٌ كثيـر حتَّى جاء ضـوء النهار، ووجد حدائقَ متعددة الألوان ممتدَّةً تحت سماءٍ زرقاءَ صافيةٍ، وكانت الرياح العليلة التي تهبُّ تداعب شعره، والفراشات تتهافت، والطيور تغرِّد بأغاني الربيـع.

أنهـى برهـان رحلته الأولى بنجـاح، وهَرْوَلَ إلى الأعشـاب الخضـراءِ، ولكنَّـه وجد نفسـه فجأةً فـي الرمال الحمـراء الحارَّة مـرَّةً أُخرى، وكان المكان الذي يتواجد فيه شـبيهًا بالمكان الذي بـدأ رحلتـه منـه، ولكنَّ هذه المـرَّة كان أمامه بحـرٌ هائج يضرب الساحل بأمواجه، علم برهان أنَّ عليه اجتياز البحر ولم يكن هناك معبَـرٌ، لكنـه لم يكن يعلم كيف سـيحقِّق ذلك؟ فأخذ ينظر يائسًـا إلى ما حوله؛ فإذا بالشابِ الغريب يظهر مجدَّدًا، وقد أحضرَ هذه المرَّة زورقًا آليًا صغيرًا، وقال له:

- إن ركبتَ هذا الزورقَ فسوف تصل بالسلامة إلى الساحل المقابل، ثم اختفى مرّةً أُخرى.

اجتاز برهانُ الأمواجَ الضخمة بواسطة الزورق الذي تقدَّم به بسرعةٍ وأمان؛ فوصل إلى الساحل المقابل، ورأى الشمس والربيع من جديد، فاكتملت بذلك رحلته الثانية، ولكنَّه كان متعبًا جدًّا، فاعتلى الصخور التي في الساحل، وقعد هناك ليرتاح، وإذ بالمشهد يتموَّج أمامه، وتحوَّل البحر الأزرق إلى صحراءَ حمراءَ ثانيةً، حاول فهم ما يجري، ثم شاهد مراكبَ ترتفع إلى السماء وتنزل منها كالمصاعد، وكان بعضُ تلك المراكب شبيهًا بالطائرات أو الصواريخ أو المناطيد.

وقال برهانُ في نفسه: "قد يكون هذا هو الطريق الثالث" فاستجمع كلَّ قُواه، وقفز إلى أحد المراكب، وما أن ضغط على زرِّ جهاز التحكُّم حتَّى بدأ يرتفع إلى السماء سريعًا، وقبل مضيِّ دقيقةٍ واحدةٍ أصبحت الصحراءُ الحمراءُ والسحبُ السوداء بعيدةً جدًّا من خلفه، وكانتِ السماء مُنارةً، اقترب المركبُ من قمَّة جبلٍ، وكان الشابُّ الغريب هناك.

تأمَّل برهانُ الأفق، فكانت الأرض بكلِّ عظمتها تحت قدميه، وكانت هذه المراكب موجودةً في كلِّ مكانٍ، فنظر إلى الغريب

نظرة تطلب تفسيرًا لما شاهده قبل قليل؛ فقال الغريب مبتسمًا:

- لقد أتممتَ رحلاتك الثلاث بنجاحٍ.

فردَّ برهان عليه:

- ما كُنتُ لأنجحَ لولا الأدوات اللازمة.

فسأله الغريب:

- أتريد معرفة ما تمثِّله تلك الأدوات التي أوصلتك إلى برِّ الأمان؟

وكان برهانُ ينتظر بفارغ الصبر العثورَ على إجاباتٍ للأسئلة التي طرأت في ذهنه، وتفسيرٍ للأحداثِ العجيبة التي مرَّ بها، فأجابه:

- طبعًا أريد.. وأريد معرفةَ كلِّ شيءٍ.

فقال الشابُّ الغريب:

- الأدوات تمثِّل آياتِ القرآنِ الكريم، فكما أوصلتك إلى المكان الذي يجب عليك الذهاب إليه، فإنَّ التدبُّر في آيات الله التي في السماوات والأرض من خلال الأبحاثِ المتعلِّقة بالكون، يوصلك إلى الحقائق والعلوم الصحيحة، وإلَّا سيؤدِّي بك الأمر إلى الانخداع كما حدث مع المسافرين من قبلك، ولن تستطيعَ الوصول إلى جمال الحقيقة، أي إنَّك قد تظنُّ كلَّ

شيءٍ وليدَ المصادفة أو ترى الأسبابَ هي التي خلقت كل شيء، غير أن الكون له مالك يديره، وكلُّ شيءٍ يتحقَّق بأمره وإذنه، فهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ.

طال الحديث، وراح برهان يشعر بانفتاح الآفاق أمامه كلَّما استمع للشابِّ، فقد تنوّر فكره وغمرت السعادة قلبه؛ لعثوره على الإجابات التي بحث عنها، وقال معبِّرًا عن فهمه للحقيقة:

- إذًا عليَّ أن أنظر إلى الكون بعين الإيمان لكشف أسراره.

أيَّده الشابُّ قائلًا:

- هذه هي الطريق التي سلكها المؤمنون، وبذلك يمكنك الوصول إلى المعرفة الصحيحة دون أن تُصاب بأيِّ همٍّ، ودون أن تضيع وقتًا في الطرق الخاطئة، ولا تنسَ أنَّ الكونَ كتابٌ يدلك على المبدع وهو الله؛ فاقرأه مع القرآن.

ثمَّ مدَّ يده مشيرًا إلى أنه قد حان موعد العودة.

وبعد أن أمسك برهانُ باليد التي مُدَّت إليه أغمض عينيه، ولمَّا فتحهما وجد نفسه في البيت ولم يكنِ الشاب الغريب موجودًا، ولكنه لم يعرف على وجه الدقَّة كيف اختفى ذلك الشابُّ؟ وكيف حدثت تلك الرحلة؟ ولكنَّه أضحى يعرف تمامًا كيف يصل إلى إجابات الأسئلة المتعلِّقة بالكون.

الرضا بما قَسَمَهُ الله

كانـت فاطمـةُ حزينـةً جـدًّا، تـكاد تبكـي عندمـا رجعـت إلـى المنـزل قبيـل المسـاء، علـى الرغم مـن أنها تعـود من بيت صديقتهـا المفضَّلـة شـيماء، والتي أخبـرت أمها من قبـل بأنَّهما متفاهمتـانِ جـدًّا، فدخلـت غرفتها خِلسـةً ثم دخلـت أمُّها عليها بهـدوءٍ بعـد أن تركت فاطمـةَ مدَّةً لتسـتريحَ وتعودَ إلـى طبيعتها مـن دون أن تفهـم مـا بها، وبدأت تداعب شـعر ابنتها، فشـعرت فاطمةُ بأنَّها أفضل حالًا الآن، وسألتها أمُّها بصوتها الدافئ:

- هل هناك مشكلة؟

فأجابتها فاطمةُ متلعثمةً:

- لا.. لا، ولكـن لمـاذا بيتُنـا ليـس كبيرًا وجميـلًا مثل بيت شـيماءَ؟ لماذا لا أمتلك ثيابًا جميلةً وثمينةً كثيابها؟ ولماذا شَعري ليس مجعَّدًا كشعرها؟ لماذا؟

حينئـذٍ أصبحتِ المشـكلة مفهومـةً؛ حيـث أن فاطمةَ كانت تحسـد شـيماءَ بشـدَّةٍ؛ لذلك لم تعد تـرى الأشـياء الجَميلة التي تملكها، فسألتها أمُّها لتذكِّرَها بذلك:

- لماذا تبخسين نفسك حقها؟

فردَّت عليها فاطمةُ قائلةً:

- ولِمَ أكون باخسة نفسي حقها؟ فكلُّ ما أتمنَّى وجودَه لديَّ موجودٌ عندها.

وسألتها أمُّها مجدَّدًا:

- هل أنتِ متأكِّدةٌ من ذلك؟ فهي أيضًا ربما تريد التشبُّهَ بك.

سكتت فاطمةُ قليلًا، ثم قالت:

- فـي الحقيقة هي كثيرًا ما تقول إنني أفهم الدروس وأنجح فيها بسهولة، وحقًّا أنا لا أُشكو من صعوبةٍ ألبتَّةَ في فهم دروسي.

كانت أمُّها قد حصلت على الإجابة التي تريدها، فقالت:

- أتريـنَ؟ فعندمـا تفكِّرين يمكنك أن تجـدي أنَّ لديك كثيرًا مـن الجوانـب الجميلـة، فالغيرة إحسـاسٌ طبيعـي، ولكنْ يجب عليكِ ألَّا تسـمحي لهذا الإحسـاس أن يسـيطر عليـك ويجعلك حزينة، والأهمُّ من هذا هو ألَّا تدَعيه ينسيك نِعم الله عليك.

فرحت فاطمةُ، وأسندت رأسها إلى كتف أمِّها، فسألتها أمُّها مجدّدًا:

- أتريدين أن أحكي لك حكايةً متعلقةً بموضوعنا؟

فلمَّا رأتها متشوقةً بدأت تقصُّ عليها قائلةً:

- كان لأحد السلاطين ثلاثةُ أبناءٍ، وحين شعر السلطان بالشيخوخة؛ أراد أن يختار أحد أبنائه خلفًا له من بعده؛ فقرَّر إجراء ثلاثة اختباراتٍ مختلفةٍ لأبنائه الثلاثة ليتأكَّد من سلامة اختياره.

وأرسل إلى ابنه الأكبر خطابًا يخبره فيه أنَّه ينتظره في قمَّة أعلى برجٍ من أبراج القصر، وأمر بوضع صناديقَ من الهدايا التي لا تُقدَّر بثمنٍ على كلِّ درجةٍ من درجات البرج، وحضر الشابُّ إلى البرج، فأصيب بالهَوَس، وأخذ يصعد الدَّرج وهو يفتح الصناديق واحدًا تلو الآخر، وكان في غاية السعادة، لكنَّه حين وصل إلى الدرجة الأخيرة، وفتح الصندوق الأخير عبس وجهُه، وقال في نفسه متذمِّرًا: "ليت البرج كان عاليًا أكثر، ليتني صعدتُ إلى ارتفاع أكبر، وجمعت المزيد من الهدايا".

وفي اليوم التالي نادى السلطانُ ابنَه الأوسط، فقال له: "أريدك أن تجرِّب ثيابي على جسدك"، وأرسله إلى خيَّاطه، فألبسه الخيّاطُ الفنّانُ الثيابَ الفاخرةَ، فكانت الثياب مناسبة جدًّا له، وبدتْ أنيقة

عليـه حقًّـا، وحينما نظر في المرآة رأى نفسـه كالسـلطان، وما أن أراد الخيّاطُ إجراء تعديلاتٍ على الثياب من خلال القصّ والقطـع كي يظهر مهارته عليها حتّى نهره الشابُّ قائلًا: "ما لكَ تهمُّ بإفساد جمالي؟ إنَّك تزعجني بأخذك مقاييسَ الثياب".

ثم نادى السـلطانُ في اليوم الثالث ابنَه الثالثَ، وأمره بالأمر الثالـث قائـلًا: "إنَّ دولتَنـا مُهَـدَّدَةٌ، وإنّـي أعيّنك قائـدًا للجيش، فاذهـب ونفِّذ ما يجب القيـام به... أريد منك النصر في المعركة، فالله سيكتب لك النصر".

اسـتقبل الشـابُّ هـذا الأمـرَ بنضـوجٍ غيـر متوقـعٍ ممَّن هو فـي عمـره، ولكنَّـه اعترض علـى كلمات والـده الأخيـرة، فقال لوالـده: "أنـا مُكلَّفٌ بالحرب، أمَّا تحقيق النصـر أو الحرمان منه فهُـو بيـد الله، فأنا أنفِّـذ ما يتوجَّب علـيَّ دون أن أتدخَّل في إرادة الله ومشيئته".

قطعت الأمُّ الحكاية هنا، وقالت لابنتها:

- هـل عرفـتِ من هو الذي رآه السـلطان جديـرًا بأن يكون وليًّا للعهد؟

فصرخت فاطمةُ متحمِّسةً من دون تردُّدٍ:

- بالتأكيـد إنه الثالـث... لأنه أعقل من أخويه الكبيرين، فهُو

يقـوم بواجبـه ثمَّ يتوكَّل على الله، وأظـنُّ أنه بذلك لن يحزنَ كثيرًا حتَّى إن كانت النتيجة سلبيَّةً.

فوافقتها أمُّها الرأيَ، وقالت:

- أتدرينَ لمَ خسر الآخرانِ؟

فسألتها فاطمةُ في فضولٍ:

- لماذا؟ وكيف قدَّر السلطان موقفيهما؟

فأوضحتْ أمُّها الأمر بكلماتٍ واثقةٍ:

- الأوَّل لم يشكرِ السُّلطان على الرغم من أخذه لتلك الهدايا التي لا تُقدَّر بثمن، ولم يقنعْ بما مُنح له، وطلبَ المزيد .

شـعرت فاطمةُ باحمرار وجهها، وأدركت غاية أمِّها من هذه الحكاية المثيرة للاهتمام، ورأت أنَّ بينها وبين هذا الشابِ شبهًا، ألم تكن فاطمةُ قد حزنت وهِي تفكِّر فيما ليس لديها من نِعمٍ بدلًا من أن تدركَ النِّعمَ التي وهبها الله لها، وأن تحمدَ الله؟

تابعتِ الأمُّ كلامها قائلةً:

- والثاني حين أُلبِسَ الثيابَ لتُجرَّبَ عليه ظنَّها له، ولم يرضَ بالإصلاحات التي تُجرى عليها.

استخلصت فاطمةُ من ذلك نتيجةً هامَّةً، وهي أنَّ كلَّ شـيءٍ ملكٌ لله، فهو يعطي من يشـاء ما يشـاء ليمتحنَ البشـر، ولو شـاء

لأجرى ما شاء من تغييراتٍ على ما وهبه، ولهذه التغييرات غاياتٌ مهمـة؛ إذ إنَّ أصــحَّ شــيءٍ يجب القيام به هو الرِّضـا بما وَهَبَهُ الله وقدّره، والقيام بالواجبات دون التدخُّل في إرادة الله.

النظافة من الإيمان

كان كامـلٌ مهمـلًا جدًّا؛ فحين يأتي إلى البيـت يرمي حقيبتَه إلـى ناحيـة ومعطفَـه إلـى ناحية أخـرى، ويدخل غرفتـه، وكانت الغرفـة بالنسـبة إليـه أريح مكانٍ فـي البيت؛ فقـد كان يعيش فيها كما يحلو له، فهو يذاكر دروسه مستلقيًا على الأرض على الرغم مـن وجود طاولةٍ ومكتبـة له؛ ولذلك تكون كتبـه ودفاتره متناثرةً فـي كلِّ مـكان، فكثيـرٌ من ثيابـه -التـي يرتديها ويخلعهـا والتي يخرجهـا من خِزانته ليلبسَـها ولا يلبسُـها- مرمـيٌّ على الأرض، وكان سريره غير منظم ومكتبته غير مرتَّبة.

وكانت أمُّ كاملٍ مسـتاءةً جدًّا من وضعه هذا، ومهما نصحته لـم تسـتطع أن تثنيه عن عادتـه هذه، وذات مرَّةٍ فتـح والدُ كاملٍ بـاب غرفتـه ليدعوَه إلى الطعـام فما كان منـه إلَّا أنْ غضب؛ فهُو أيضًـا يـرى أنَّ نصيحته دون جدوى، ولكـنْ كان عليه إيجاد حلٍّ لهذه المُعْضِلَة.

وعند تناول الإفطار في نهاية أحد الأسابيع عرض عليه هذا العرض وهو متأكدّ من أنه لن يرفض:

- ما رأيك في أن نخيّمَ في الغابة؟ أنا وأنتَ فقط.

حار كاملٌ كثيرًا جرّاء هذا العرض الذي لم يكن يتوقّعه قطُّ، وظنَّ أنَّه لن يتمكّنَ أبدًا من بلع اللقمة التي في فيه، وما إن مضغ اللقمة حتّى عانق أباه، وصاح قائلًا:

- أبي.. أبي العزيز.

لقد لقي الأبُ ردَّةَ الفعلِ التي كان ينتظرها من ابنه، واستغلَّ الفرصة التي في يده قائلًا:

- ولكنْ لديَّ شرطٌ واحدٌ.

فقال كاملٌ:

- لا تقلْ ذلك يا أبي.

ولكنَّ كاملًا كان متشوّقًا جدًّا لهذه الرحلة إلى درجة أنَّه كان جاهزًا لقَبول شرط أبيه أيًّا كان، فقال أبوه:

- الشرط هو أن تنظِّفَ غرفتك وألَّا تبعثرها لمدَّة أسبوع.

فذهب كاملٌ غيرَ راغبٍ إلى غرفته، ووقف عند الباب ناظرًا إلى الداخل، وكانت كلُّ الأشياء التي يستخدمها منذ عدَّة أشهرٍ في أماكن مختلفةٍ من الغرفة، وسأل نفسه: "كيف ستُرتِّب هذه

الغرفـة؟" وبعد أن فكّر مليًا قرّر البـدءَ من المكتبة، فبدأ بتصنيف الكتـب والدفاتر واحدًا تلو الآخـر، وترتيبها على رفوف المكتبة، ولكـنَّ الوضـع كان أسـوأَ ممَّا كان يُـرى، حيث كانـتِ العناكب قد نسـجت خيوطها على الملفَّات والأوراق الممتدَّة إلى أسـفل السرير.

لقـد عمـل كاملٌ طوالَ اليوم، وفي المسـاء نظر إلى أشـيائه، فوجد أخيرًا كلَّ شيءٍ مكانه، ولو أنه لـم ينظِّف الغرفة بنفسه لشكَّ أنها غرفته، ووجد بعض كتبه وصوره ورسومه وملابسه التي ظنها ضائعةً منذ أشهرٍ، فكانت الأشياء التي سأل أصدقاءه في المدرسة عنهـا مختفيـةً فـي غرفته الصغيـرة، وأكثرُ مـا جعل كامـلًا حائرًا هـو القمامةُ التي ملأت عدَّة أكياسٍ، والملابسُ المتَّسـخة، فتمتم في نفسه: "إنني أعيش في غرفة قمامةٍ ولا عِلمَ لي بذلك".

وقـد نجح كاملٌ في الحفاظ على نظافـة غرفته وترتيبها مدَّة أسبوعٍ، وكان في البداية يشعر بأنَّه مجبرٌ على فعل ذلك، أمَّا الآن فقـد أدرك أنَّ العيـش في غرفة نظيفةٍ كهذه أمتع وأريح، وأصبح بإمكانه العثورُ فورًا على أيِّ شيءٍ يبحث عنه.

وفـي نهاية الأسـبوع نصب كامـلٌ وأبوه خيمـةً على ضفاف جـدولٍ فـي غابـةٍ قـربَ المدينـة، وأراد والِـدُ كامـلٍ النـزول

إلـى الجدول لجلب الماء، وحينمـا عاد كانت تنتظره مفاجأةٌ غير سارَّةٍ؛ إذ كان كاملٌ يرمي أغلفة البسكويت المحشيِّ والشيكولاتة حوله، فقال له:

- ظننتك قد أدركتَ قيمة النظافة.

فردَّ عليه كاملٌ:

- طبعًا أدركتُ ذلك، فقد نظَّفتُ ما بداخل الخيمة ورتَّبتُه.

فسأله أبوه:

- أمـا تـدري أنَّك حيـن تقوم بإلقـاء الأغلفة حولـك تلوِّث البيئة؟

فقال كاملٌ وهُو يهزُّ كتفيه:

- وما أهمِّيَّةُ ذلك؟

حينهـا وضــع الأبُ يديه علـى كتفَي كامـلٍ، وأراه الجدول المنساب والشجر الأخضر والسماء، ثم قال له:

- كلُّ ما تراه ها هنا يُسْهِم في تنظيف العالَمِ الذي نعيش فيه امتثـالًا لأمـر الله تعالى، بل إنَّ هذه الأشـياء كلَّهـا عادةً ما تتنافس فيمـا بينهـا على ذلك، فهل يجوز أن نلوِّث نحن في حين أنَّ تلك الكائنـات تقوم بالتنظيـف؟ وهل يرضى الله تعالى بأن نلوث البيئة التي زيَّنها بالجمال؟

نظـر كامـلٌ إلى ما حولـه فما وجـد قمامةً غير تلـك الغُلُفِ التي رماها، وأدرك أنَّ أباه على حقٍّ؛ فقال:

- حسَـنٌ، ولكن كيف تكون تلك المنافسـة؟ فإنِّي لستُ أرى أيَّةَ حركةٍ.

هـذه الغابة تتنفَّس، وتنظِّف الهواء الذي نلوِّثه نحن ثمَّ تُعيده إلينا صالحًا نظيفًا.

وبعد ذلك أخذ الأبُ يُرِي ابنَه الغيوم التي تُسـيِّرها النَّسَماتُ بهبوبها الخفيف، وتابع كلامه:

وأمـا الريـاحُ فإنهـا تزيل الغبـارَ الذي على سـطح الأرض، وتُسـيِّر السـحب المليئـة بالأمطـار إلـى الأماكن التـي تحتاجها، وتسـقط الأمطار الغزيرة على الأرض، ثـمَّ تغادر صامتةً، والمطر يُنظِّف الجوَّ وسـطحَ الأرض، ويَسـكن التراب، وبعد ذلك يغدو العالَم برَّاقًا جميلًا.

سأل كاملٌ:

- وما مصير المياه الملوَّثة؟

- الأرض تنظِّفهـا، وتحوِّلهـا إلـى ميـاهٍ عذبـةٍ، وتُخَزِّنهـا لنا في الينابيـع.

- إذًا فنحن من يلوِّث فقط.

وانحنى كاملٌ ليجمع الأغلفة الورقيَّة التي رماها، فرأى نملًا يتجوَّل عليها، فقال:

- انظر إلى هذا يا أبي، إنَّ النملَ أكل زوائد الطعام.

فردَّ عليه أبوه:

- النمل والحشرات عمومًا تُسهم في النظافة، ولذلك فإنَّ أعدادَها كبيرةٌ، ولولا عملية التنظيف المتواصل في البيئة لجعلتِ الفَضَلاتُ العالَم غيرَ صالحٍ للحياة.

وكان ما شاهداه هنا كافيًا بالنسبة إلى كاملٍ، حيث أنَّه علم جيدًا أن الله ﷻ يحبُّ النظافة، وأنَّه لا حقَّ لنا في تلويث العالَم النظيف الذي وهبنا إيَّاه.

وربَّما قيلت مقولة : "النظافة من الإيمان" تأكيدًا لذلك.

البركة في السحور

فـي يـومٍ من أيّـام الخريف الجميلـة، كانت دعـاء ذاهبةً مـع عائلتهـا لزيـارة جدَّتهـا وجدِّها اللذَين يعيشـانِ فـي البلدة، وكان أبواهـا يتحادثـانِ وهمـا علـى المقعديـن الأماميَّينِ من السـيارة، بينمـا كانـت هي مسـتمتِعةً بمشـاهدة القُرى والجبـال والجداول والحيَوانات على طول الطريق.

وبعد عدة سـاعاتٍ شـعرت دعـاء بالجوع والعطـش، وكان البسكويت وعصير الفواكه قد انتهيا قبل قليل، فسألت أمَّها:

- ألن نستريحَ في الطريق؟ فقد جُعْتُ كثيرًا.

فأجابت الأمُّ:

- اقتربنـا مـن البلـدة يـا بُنيَّتي، فمـن يدري ما هـي الأطعمة الشـهيَّة التي جهَّزتها لنا جدَّتك؟ فإن صبرتِ قليلًا أكلتِ من تلك الأطعمة بدلًا من بعض اللقيمات.

وقال أبوها وهُو يقود سيَّارته في اتجاه طريق الجبل:

- يمكنني أن آخذكم من طريقٍ مختصرٍ إن أردتم ذلك.

لم يكن هذا الطريق في حالٍ جيّدةٍ كالطريق الرئيسيِّ، لكنه جميلُ المنظر، فنزلوا إلى وادٍ شديد الخُضرة ينساب في وسطه جدولٌ متعرِّجٌ، فظهرت قريةٌ صغيرةٌ وجميلةٌ، وبدأت السيارة تهتزّ أثناء سيرهم بها وهم سعداء، توقَّفوا وخرجوا من السيّارة ليروا ما حلَّ بها ، فإذا بأسلاكٍ شائكةٍ لسياج إحدى الحدائق ساقطة على الأرض، تسبَّبت في ثقب عجلتينِ من عجلات السيّارة، فقال والد دعاء متعجّبًا:

- كيف حدث ذلك؟! ليس لدينا سوى عجلةٍ واحدة احتياطيَّةٍ، فإذا أبدلتُ إحداهما لا أستطيع فعل شيءٍ للأُخرى، ولا يمكننا قطع الطريق بعجلةٍ مثقوبة.

وقالت أمُّ دعاء:

- يا الله، ما هذا الذي جرى وقد اقتربنا من البلدة؟

ولما اقتربت الشمس من الغروب، انتظروا قدوم سيّارةٍ لطلب العون من أصحابها، ولكنْ لم يكن أحدٌ يمرُّ من الطريق الجبليّ وبخاصَّةٍ في هذا الوقت.

- ليس أمامنا سوى شيءٍ واحدٍ وهُو أن نترك السيارة هنا ونذهبَ إلى القرية لطلب المساعدة.

ذهبوا إلى القرية من بين الحدائق والمزارع، وكانت القرية تُرى هادئةً جدًّا، ووجدوا أحد الرعاة يقود القطيع ذاهبًا إلى البيت، فأسرعت الحيَوانات إلى البيوت على شكل مجموعاتٍ متفرِّقةٍ، وقد بدا واضحًا أنَّ كلَّ حيَوانٍ يعرف طريقه.

وعندما لم تجد دعاء وعائلتُها أحدًا في ساحة القرية يساعدهم؛ طرقوا أقرب بابٍ إليهم؛ وظهر خلف الباب الذي فُتح ببطءٍ زوجانِ مسنَّانِ، فقصَّ والد دعاء عليهما ما حل بهم، وسألهما إن كان بإمكانهما مساعدتهم، فابتسم الرجل المسنُّ، ودعاهم لشرب الشاي، وطلب منهم الدخول وهو يقول:

- تفضَّلوا يا سيِّدي، حلُّوا ضيوفًا علينا، وسنجد حلًّا.

لم تُعارض دعاء ذلك، فقد كانت تشعر بالبرد والجوع الشديدين، ولم يشأ والداها قَبولَ هذه الاستضافة السخيَّة، ولكنَّ الإصرارَ الحارَّ والودِّيَّ الذي يتميَّز به الإنسانُ الأناضوليُّ جذبهما إلى الداخل، وقد مُدَّت سفرةٌ أمام الكانون[١٠] المتوقِّدةِ نارُه، وكان الطعام عبارةً عن حساء برغلٍ ساخن وزيتون وخبز

(١٠) الفرن، الموقد.

قـرويّ، وجلسـوا علـى السـفرة معًا، وأخـذت دعاءُ تشـمُّ بعمقٍ رائحة الحساء التي ملأت الغرفة، وغرفت منه بملعقتها، وشربت منـه فـورًا، وتابعت ذلـك ملعقةً إثـرَ الأخرى؛ فقد كانـت جائعةً إلى درجة أنها شـعرت بأنَّ هذا الحسـاء ألذُّ من أشـهى الأطعمة التي أكلتها من ذي قبل.

قـرَّرت دعـاء وعائلتهـا أن يبيتـوا فـي تلـك القريـة الصغيرة المؤنسـة؛ نتيجة إصـرار أصحاب البيت، ولم يكن بوسـعهم بعد هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل إلَّا أن يتَّصلـوا بالجـدَّة والجدِّ ليخبروهما بما حدث.

اسـتيقظت دعـاء في سـاعةٍ متأخِّـرةٍ من الليـل، حيث كانت هنـاك أصواتٌ هادئـةٌ في الغرفة الخافتة الضوء، فـإذا بموقد النار لا يزال متَّقدًا، وقد انتشـرت هذه المرة رائحة المعجَّنات والزعتر فـي الداخـل، وتذكَّرت دعـاءُ أنَّ اليـوم التالي هو أوَّل أيَّامِ شـهر رمضانَ المبارك، إذًا كان أهل البيت مسـتيقظينَ لتناول السَّـحور، فقفـزت مسـرعةً وانضمَّت إليهم، واستفسـرت عن سـبب فرض الصيـام وهـي تـأكل المعجَّنات السـاخنة، وتُتْبِـع ذلك بارتشـاف الزعتر، فقال أبوها:

- ربَّما من أجل معرفة قيمة نِعم الله وما يعانيه الفقراء كي نساعدَهم.

تذكَّرت دعاء ما عاشته البارحةَ، فهل كانت ستجد حساء البرغل ألذَّ طعامٍ في العالم لو لم تبقَ جائعةً لعدَّة ساعاتٍ؟ إذًا فالصيام يجعلنا ندرك قيمة نِعم الله التي لا تُحصى، وهذا يذكِّرنا أن نحمدَ الله تعالى.

وقال الرجل المسنُّ وهُو يمسح لحيته بيده:

- حان الوقت.

فقالت دعاء متحمِّسةً:

- بدأ الصوم، أليس كذلك؟ فالأكل ممنوعٌ.

أجابتها أمُّها:

- أجل يا بنتي، فنحن عابرو سبيلٍ في الدنيا كما نحن هنا، فحين يقول صاحب الملك: تفضَّلوا كُلوا، فإننا نأكل ما أَذِنَ به وأَحلَّه هو، ولن نمدَّ يدًا إلى الحرام.

وقال أبوها:

- إن كنتِ تريدين أن تجعلي صومَكِ مقبولًا عند الله تعالى فعليكِ أن تجعلي أعضاء جسدك تصوم مع معدتك، وأن تحميها من الحرام.

فسألت دعاء:

- وكيف لي أن أفعل ذلك؟

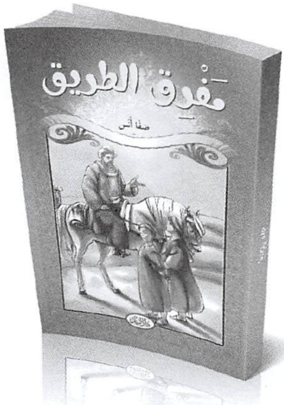
فأجابها أبوها:

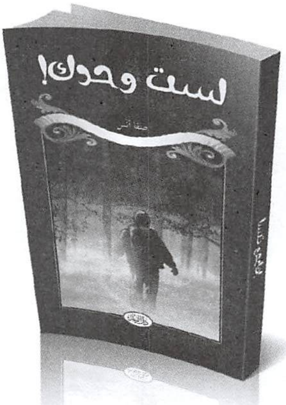
- تحفظين لسانك وأذنك عن الكذب والغيبة والنميمة والكلمات البذيئة؛ وتنشغلين بقراءة القرآن وأداء الصلاة، ولا تنظري إلى الحرام أبدًا.

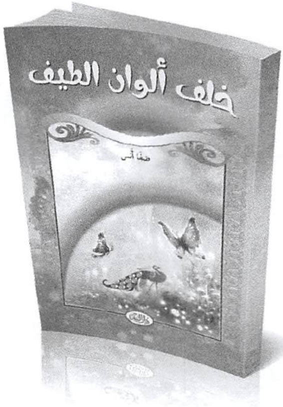
وفي الصباح تمَّ تبديلُ عجلتي السيّارة المثقوبتين بمساعدة أهل القرية، وودَّعت دعاء وعائلتُها أصحابَ البيت الذين استضافوهم، وساروا في طريقهم تاركين وراءهم صداقةً نشأتْ في زمنٍ قصيرٍ، وذكرياتٍ جميلةً.

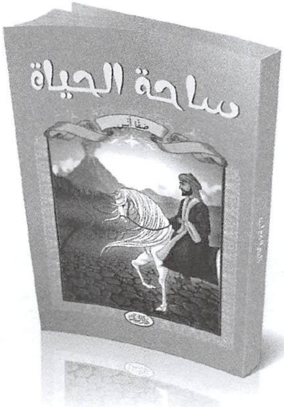
وحرصت دعاء على الصوم طوالَ شهر رمضانَ، وكانت ثقتها بنفسها تزداد كلَّما وجدت نفسها متمكِّنةً من ذلك، والأهمُّ من ذلك أنَّها كانت تعيش فرحةَ الاستفادة المثلى من شهر رمضان.

سلسلة حكايات رسائل النور









موعة قصص مبسطة مختارة مما ورد في كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد ورسي، تهدف إلى تعليم أبنائنا وبناتنا الأعزاء قيمنا النبيلة كالإيمان بالله تعالى والأخلاق الفاضلة ورعاية حقوق الآخرين ومعاملة الناس معاملة حسنة.

كما ترمي هذه القصص الجميلة إلى تحسين سلوك أولادنا وتصرفاتهم.

يد أن نذكر بأن أولادنا وبناتنا في حاجة ماسة إلى مثل هذه القصص التي تساعد على تنشئة جيل صالح نافع.

قصص أسماء الله الحسني 8 كتب صَفَا أَنَس

صدر حديثا...



ـ قصص أسماء الله الحسنى تعلِّم أطفالنا بعضًا من أسماء الله الحسنى بأسلوب
صصي سهل يجري على ألسنة المخلوقات؛ من نباتاتٍ، وحيواناتٍ، وأجرامٍ
ماويةٍ، كما تهدف هذه القصص إلى تنشئة طفل يعرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى.

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ



أُحِبُّ رَسُولِي

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

